روايات عالمية من الشرق والغرب

صوت الضمير

ملیما

١٥٧ شارع عبد العزيز - روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ - ٤٠٧٥٣ - ٤٠٨١٤ - ٤١٠١٢

العدد ١٨٣ الثمن ٣ قروش

www.liilas.com
www.liilas.com
منتديات ليلاس الثقافية

محمد لطارح سلامة
الى [illegible]
7

روايات عالمية

هاريت بيتشر ستو

صوت الضمير

قصة انسانية رائعة

للكاتبة الانجليزية الكبيرة

سيرهول كين

www.liilas.com

القسم الأول

الفصل الأول

من المذنب ؟

كان الحادث غريبا فى نوعه ، أثار الهمس بين طلبة مدرسة الملك ويليام فى جزيرة « مان » ٠٠ فقد برز الناظر الى فنـاء الكلية قبل أن تتجه صفوفهم الى حجرات الدراسة فى ذلك الصباح ، وهو مكفهر الوجه بادى الحنق ، فوقف يحدثهم أن طالبا منهم أساء بسلوكه الى سمعة المدرسة ، اذ رؤى مرارا يسير فى الطرقات ، بعد أن يرخى الظلام سدوله ، مع فتاة من خدم بيت قاضى المحكمة الابتدائية ٠ مما دعـا رجلين من المدينة الى التربص له فى الليلة السابقة ، فحدثت بينه وبينهما معركة استعمل فيها الطالب عصا أصاب بها الرجلين ، فنقل أحدهما الى المستشفى وهو فاقد الوعى ، بينما جرح وجه الآخر جروحا خطيرة ٠

واستطرد الناظر يقول : وأصارحكم اننى لا أعرفه ٠٠لا ولا البوليس يعلم شيئا عن شخصيته ، كمـا أن خصميه يجهلان اسمه ، والفتـاة ترفض ان تبوح بشىء عنه ٠ ٠ ولكن مسألة كهذه تمس سمعة الكلية لا يجب السكوت عنها ، سـيما وان البوليس قد اشترط لعدم التدخل فى الأمر ، أن تقوم المدرسة بمعاقبة الطالب ، ولذا فاننى أترك له الفرصة ليتقدم طائعـا بالاعتراف بجرمه ، وطلب الصفح والمغفرة من ناظره ومدرسيه واخوانه ٠٠ فمن هو ٠ ؟

www.liilas.com

ولكن أحدا لم يتقدم .. فعاد الناظر يذكر أن الحادث وقع بين الساعة التاسعة والتاسعة والنصف من الليلة الماضية ، وان ادارة الكلية تعرف ان ليس ثمة غير طالب واحد كان خارج مساكن الطلبة فى ذلك الوقت وعـــاد متأخرا .. ثم ما لبث الناظر ــ وقد وجد أن أحدا لم يجرؤ على التقدم ــ أن صاح:

ــ ستول .. تقدم . !

وحبس الطلبة أنفاسهم .. كان ستول زعيمهم وأحبهم الى القلوب ، نامى الجسم ، يقترب من الثامنة عشرة من عمـــره ، أسود الشعر ، دقيق الملامح ، عريض الجبهة ، عرف بروحـــه المغذة وشخصيته البارزة ، وتقدم ستول فى صمت دون ان تلوح على وجهه أمارة من الخجل ، بل بدت فى عينيه نظرة تحد زادت من ثورة الناظر فصاح :

ــ ستول ! أتنكر انك كنت فى الخارج الى ساعة متأخرة بعد موعد العودة الى مساكن الطلبة ؟.

ــ كلا .

ــ اذن فهل كنت انت صاحب الحادث ؟.

وهم ستول أن يتكلم . ثم أحجم فى كبرياء ، وأغلق فمه فكرر الناظر سؤاله واذ ذاك أجاب : هكذا تقول أنت ياسيدى

ــ أقول ؟ . هل كنت أنت ؟ . لماذا لا تجيب ؟.

فهز الفتى رأسه وعض على شفته ثم قـــال : اذا كنت تقول اننى صاحب الواقعة فما جدوى اجابتى يا سيدى ؟.

وفى سورة الغيظ والسخط . رفع الناظر عصـــاه فهوى بها على ظهر الفتى ثلاثا فى مثل لمح البصر ، وحبس الطلبـــة أنفاسهم مرة ثانية ، ولكن الفتى لم يتحرك ، بل ظلا واقفا امام الناظر شاحب الوجه . يرتجف لفرط انفعاله . ثم ما لبث أن تمالك نفسه ، فهز رأسه وعاد يطبق شفتيه .

وأمر ستول أن يلزم حجرته الخاصة لا يبرحها حتى يتم الناظر فحص أمره .

* * *

وفى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم ــ من أيام نوفمبر الباردة ــ كان ستول جالسا فى حجرته ــ التى أصبحت سجنا له ــ حين فتح الباب ، ونفذ (اليك جيل) صديقه الحميم الذى يدانيه عمرا ، وان امتاز عنه بشعره الأشقر وعينيـــه الزرقاوين ، وملامحه التى يشوبها طابع من جمال الأنوثة .

وهمس جيل فى صوت أجش : فيكتور ! لم أعد اتحمل . انك بكل تأكيد لم تكن صاحب هذا الحادث المشين . اذ كنت أنا .. المذنب .!

ولم يجب ستول .. ولم يرفع الى صديقه عينيه فعاد هذا يقول : ألا تسمعنى ؟.

ــ بل كنت أعلم هذا ..

ــ تعلمه ؟. كيف ؟. ومتى ؟.

ــ فى الليلة الماضية ..

فقد حدث ان أرسله الناظر فى الليلة الماضية فى مهمـــة نسى آليوم امرها ، فرأى فى طريقه صديقه والفتاة .

ــ يا لله ، ولماذا لم تذكره بهذه المهمة ؟.

ــ لا أود ذلك ، فليس له ان ينسى .

ــ ولماذا لم تنكر الحادث . ؟

ــ صه يا اليك .! فلو تكلمت لاتجهت اليك الظنون بعدى اذ كان اليك قد تسلل خلسة غير عابىء بقوانين المدرسة كى يلقى فتاته .

وصاح اليك : اذن ، فقد فعلت هذا لتنقذنى ؟

ولكن ستول صاح يامره أن يدع عنه هذا الأمر ، ثم ساله

www.liilas.com

ان يقص عليه أمر الفتاة التى كانت تصحبه ، كانت «بيسى كوليستر » ابنة زوجة دان بالدروما ، يا لله ! لو أن أباه أو لو أن زوج أم الفتاة عرف بالحادث ؟ أى جميل يصنعه فيكتور بصمته ! ولكن .. لا ..

وتحول جيل نحو الباب حتى اذا بلغه التفت الى صاحبه وصاح :

ـ اسمع ، سأذهب الى الناظر فأخبره ان خروجك بالأمس كان لمهمة خاصة به .

فصاح ستول : كلا ، اذا ذهبت فلن أكلمك قط ! دعه يتذكر هذا بنفسه ، اذا أمكن ، دعه وشأنه .

ـ كلا ، ومادمت لاتريدنى على ان أحدثه فى شأنك ، فاننى سأكلمه عن نفسى أنا ، لن آبه بما يحدث لو عرف والدى أو أى شخص آخر ، اننى لا أطيق صمتا !

وانفلت من الحجرة غير عابىء بنداء صديقه .

* * *

تذكر الناظر وقد آوى الى حجرته ، انه كان قد أوفد ستول ليحضر له دواء كان قادما ببريد المساء .. وفيماهو يحاسب نفسه أقبل جيل يعترف له بانه صاحب الحادث .. لقد تسلل حقا من المدرسة والتقى بالفتاة .. ولكنه لم يكن قد اعتاد لقاءها قبل ذلك .. كانت فتاة من مزرعة قريبة من بيتهم فى الشمال ، فلما التقى بها صدفة ، وقف يتحدث اليها ، واذذاك أقبل الرجلان اللذان اشتجر معهما ، واضطراه الى هذا الشجار ، الذى زعما كذبا انه استعمل فيه عصا انهال بها عليهما ، مع أن العصا كانت مع أحدهما فانتزعها جيل منه دفاعا عن نفسه ، ثم اضطر الى استعمالها حتى اذا أقبل البوليس على صرخات الفتاة ـ أسرع هاربا عائدا الى المدرسة .

وصاح الناظر : أيها التعس ! ألا ترى ماذا فعلت بصمتك لقد جعلتنى أعاقب غيرك .. اعاقب بريئا .. وهل عرف ستول ؟

ـ أجل ياسيدى ، فقد رآنى مع بيسى كوليستر وهو فى طريقه الى المحطة للسؤال عن البريد .. ولكنه تحمل الاتهام والعقاب ليتستر على أمرى .

لم يأو الناظر الى فراشه ذلك المساء ، فقد جفا النوم عينيه واستبد به تأنيب الضمير لنسيانه الذى أوجب عقاب الفتى البرىء . فجلس الى مكتبه يكتب لوالد ستول

ـ قاضى قضاة الجزيرة ـ يقص عليه الحقيقة كلها ويذكر له حيرته ، وخجله من الفتى بعد كل هذا :

« اننى لا أستطيع التطلع الى وجهه بعد اليوم .. لقد فكرت فى الاستقالة ، ولكنى رأيت أن أترك الأمر لحكمته . فاذا رأيت ان أبقى فى منصبى ، فاسحب ابنك من المدرسة واذا رأيت أن يمكث فيجب ان أستقيل فاختر مايرضيك »

الفصل الثانى

فيكتور ستول

كان القاضى ستول البقية الباقية من أسرة من أعرق وأقدم أسرات جزيرة « مان » عاشت فى مقاطعتها الخاصة فى « بالاموار » منذ فجر تاريخ الجزيرة .

وكان القاضى فى الستين من عمره اذ ذاك ، أشيب الشعر ، حليق الوجه ذا عينين ثاقبتين يخالط نظراتهما سيل من الرحمة ، قاسيا ولكنه رغم ذلك مرهف الحس ، صموتا ذا شخصية يحوطها الاحترام من كل جانب . وكان شعاره الأوحد « العدالة هى أقوى وأقدس شىء على الأرض » .

وقد عاش عمره عاملا على تحقيق هذا الشعار .

www.liilas.com

على أن حياته الخاصة كانت مشـــوبه بطابع من الحزن الصامت الخالد؛ اذ كان قد تزوج ـ فى سن متأخرة ـ بانجليزية شابة ، حوت من الجمال كل رائع فتان ، ثم مالبث أن فقد هذه الزوجة الحبيبة بعد أن وضعت طفلها ـ الاول والاخير ـ «فيكتور » فاعتزل الناس اللهم الا فى الظروف التى يحتمها عليه منصبه · وابتعد عن مجتمعاتهم ، وحملهم بسلوكه على ألا يحاولوا زيارة بيته ، أو الاختلاط به ·· ملقيا بزمـــام بيته الى خادم عانس تدعى « جانيت كيرفى » كانت هى الاخرى من أسرة ولدت مع مولد الجزيرة ، أحبت القاضى حتى العبادة وأولت طفله حب الأم وحنانها ، حتى نشأ الطفل وهو يدعوها « أمه » ، وظل اعواما طويلة وهو يوقن انها أمه التى انجبته·

* * *

كانت طفولة فيكتور صفحة من أحب صفحات حياته ، فقد نشأ وادعا ظريفا يحبه الكل ، وكان لايعرف له أقارب فما لبث ان اتخذ ممن حوله اقارب · فقد سمع بوبى ابن الحدائقى الذى يعنى بحديقة القصر « بالأموار » يدعوا أباه بلفظ « ابت » فاصبح اسم روبى كرير لدى فيكتور منذ ذلك اليوم «ابت» ولقد سمع ابنة أخت صاحبة حانوت البقالة القريب من مكتب البريد ، تدعو هذه باسم « خالتى كيتى » فاصبح يدعو المرأة بهذا الاسم ايضا · وكان الكل يحبونه لهذا !

وما كان فيكتور فى حداثته يرى أباه الا مرة كل يوم · فى المساء عندما تحمله جانيت الى الحمام فيغتسل ثم تصحبه الى المكتبة حيث يحيى أباه تحية المســـاء قبل أن يأوى الى فراشه ، فكان القاضى يرفعه الى صورة أمه ويدعوه الى أن يلقى عليها تحية المساء ، ثم يقول : يجب أن تحبها وتقدس ذكراها طيلة عمرك أيها الحبيب ·· ولسوف أحدثك عنها يوما ما·

وكان بوهيميا بالفطرة · ينطلق بين المزارع الممتدة امام القصر فيظل سائرا لا يحس بالتعب الى مسافات بعيدة ، وكان شاعرا بالسليقة أيضا ، وكثيرا ما اعجب القاضى بأناشـــيد كان يسمعه يرتجلها فيشجعه ويقوى فيه هذه الموهبة ، ولقد دهشت جانيت حين عرفت يوما ان القاضى يسجل هـــذه الاناشيد مع غيرها مما يسجل من أمور الطفل ، فى كتاب ذى غـلافة جلدية كتب عليه « يوميات ايزوبيل » ، كان يحرص على اخفائه فى درج مغلق حتى لا تصل اليه يد غير يده ·

وأوحى الخيـــال للطفـــل فى حداثته أن يختلق لنفسه صديقة ـ ليس لها وجود ـ تشاطره ألعابه ونزهاته على ظهر جواده الصغير ، كانت طفلة خيالية ، ولكنها كانت تملأ عليه حياته ، بيد انه ما لبث يوما أن تناساها · فقد دعا القاضى ذات يوم حاكم الجزيرة الجـــديد ـ سيرجون ستانلى ـ الى قصره ، فأقبل هذا مستصحبا ابنته الطفلة ـ اليتيمة ـ « فينيلا » فاذا بالالفة تسود الصغيرين سريعا · ومع أنهمـا مالبثا ان اشتجرا قبل أن يفترقا ، الا أن فيكتور لم يفكر بعد ذلك فى الصديقة التى ابتدعها خياله الساذج البرىء ·

ومرت أربع سنوات ، ثم التقى الصبى بالفتاة ثانية ،فى بيت الحاكم ، وكانت فينيلا قد غدت فتاة أطول من لداتهـا فى السن ، مبكرة النمو ، مرهفة الحس ، رقيقة العواطف ، ولكنهـــا ·· كانت مدللة بعض الشىء ·· وكانت فى ذلك اليوم تلعب «التنس» مع بنات جيل الثلاث اللاتى ينتمين الى أسرة كبيرة فى الجزيرة ـ فلما أقبـــل فيكتور ، انتزعت فينيلا من احدى زميلاتها مضربا وقدمته اليه كى يلعب معها· ولكنه كان يجهل كل شىء عن التنس · فتحولت الفتاة تنتزع المضرب من يده فى سأم وملل وتعيده الى صاحبته ، واحمرت

www.liilas.com

وجنتا فيكتور ، ثم سار متئد الخطى منكس الرأس الى حيث كان أبوه يجلس مع الحاكم ٠

وانقضت أربعة أعوام أخرى ٠ ثم التقى الفتى والفتاة وقد كبرا ٠ كان فيكتور فى تلك الأثناء قد التقى بأول أصدقائه « اليك جيـــل » الابن الاوحد لارشيبالد جيل والد الفتيات الثلاث ، ورئيس مجلس النـــواب فى الجزيرة ، وصاحب الاراضى الواسعة المجاورة لأمـــلاك القاضى ، والبيت الفخم القائم فى طريق رامسى ٠

وكان لقاء الفتى والفتاة فى مدرسة رامسى ٠٠ يوم الاحتفال بتوزيع الجوائز على المتقدمين من الطلبة بحضور حاكم الجزيرة وابنته ٠٠ ولم يكن لجيل نصيب من هذه الجوائز ٠ فقـــد كان لعوبا ـ وان كان محبوبا ـ غير متقد الذكاء ٠ وان كان طيب القلب شديد الاخلاص ، وكان لفيـكتور نصيب ضئيل قدمه اليه الناظر وهو يقـــول : « ها كم فتى ذا مواهب فذة خارقة ، ولكنه لم ينل غير جائزة واحدة ٠٠ ولو ان مثل هذا النابغة ـ أجل انه نابغة ـ عنى بدروسه لكان الفائز المبرز ! ٠»

وارتبك فيكتور واحمر وجهه خجلا ، ولكن الحاكم صافح ابن صديقه القاضى اقرارا لاعجاب النـــاظر بمواهبه ، وكان لهذا أثره ٠ فقد تزعم فيكتور فريق « الكريكيت » فى المباراة التى أقيمت بعد ذلك ، فى نفس اليوم فأبدى مهارة وحذقا اجتذبا اعجاب الجميـع مما عوضه عن اخفاقه فى نيل المزيد من الجوائز ٠

* * *

وراحت أواصر الصداقة بين فيكتور ستول واليك جيـل تتوطد يوما بعد يوم حتى ان زملاءهما ما كانوا ليروهمـــا الا معا ، بيد انهما كانا مثالا للخمول فما سعيا يوما للبروز على زملائهما فى الدراسة ، وكان رئيس مجلس النـــواب

يثـــور على ولده ويرميه بالتكاسل والقعود عن الجد وتغافل واجباته وهو الذى ســـيرثه فى إدارة أملاكه ورعاية اخوانه الثلاث ، أما القاضى فكان صامتا ، يتلقى التقارير غير المرضية عن اهمال ابنه وهـو ساكت لا ينبس بكلمة لوم او عتاب ، يكتفى بأن يعكف فى عزلته فى مكتبته ، على تسجيل أنبـاء ابنه فى المذكرات ذات الغلاف الجلدى ٠

واذ بلغ ستول السابعة عشرة من عمره ، أصبح زعيـم الطلبة فى المدرسة ، لا بفضل اجتهاده واستذكاره ، ولـكن بتفوقه فى الرياضة وبنفوذه على اخوانه ، وبينما كان جيل يخرج من مأزق ليقع فى آخر أشد منه وطأة ، كان ســـتول يرى نفسه مسئولا عن مسلك صديقه فيضحى لانقـــاذه ما أمكنه ، وتناهت الاخبار الى قصر بالاموار ، أخبار الحوادث المشينة التى كان ستول يرتضى أن تنسب اليه لينقذ صديقه من تبعاتها ، وجانيت ترفض أن تصدق ان الطفل الذى ربته ورعته يجسر على اتيانها ، والناس تبدى أسفها اذ أنجب القاضى الصالح ، ابنا صالحا خمولا متقاعدا ٠

ثم كان الحادث الاخير الذى أثار ضـــجة فى الجزيرة ، ولكن القاضى لم يبد أية دهشة حين تسـلم رسالة الناظر ، بل رأته جانيت يحمل الخطاب الى المكتبة ، فيقف بجـــوار مكتبه تحت صورة زوجته ، ثم يفضه ويطلع على ما جاء فيه ، واكفهر وجهـــه أول الأمر ، ثم لم يلبث ان اشرق ، وأسرع القاضى الى مكتبه ، يعد برقية لنـاظر المدرسة ، اقتصرت على كلمتين : « أرسله ـ ستول » ٠ !

وتقسم جانيت انه بعد ذلك نهض فتطلـــع الى صـــورة زوجه ، وقال فى لهجة المصلى يناجى الهه :

ـ كل شىء حسن يا ايزوبيل ٠

www.liilas.com

الفصل الثالث

الآباء والأبناء

فى اليوم التالى ، قاد القـــاضى عربته بنفسه الى محطة دوجلاس ، حيث استقبل ابنه ·· وفى صمت أشار للفتى الى مكانه بجواره فى العربة ، ثم راح يطوف بشـــوق البلدة ، محييا هذا ، مشتريا من ذاك ·· وما لبث أن اتجه الى مكتب النائب العام « دونالد واتلويرث » الذى كان زميـــلا له فى الدراسة ·· والذى كان مثالا للصراحة والمغالاة فى الســـير وراء الحق ، وفى التدين ·· ومكث القـــاضى يتحدث الى صديقه زهاء ربـع الساعة ، والفتى ينتظر فى العربة خارج الـــدار ·· حتى اذا انتهت الزيارة ، وخرج النائب يودع صاحبه ، اقترب ذاك من الفتى ، والقاضى يصعد الى مقعده ، فهمس فى أذنه :

ـ هون عليك ياولدى ·· فكثيرا ما تبـــدأ القصة بداية سيئة ، ولكنها تفضى الى نتيجة مشرفة ! ·

وانطلق القاضى بعـد ذلك الى بيت الحاكم واحس فيكتور بالراحة مرة ثانية اذ خلفه أبوه فى الخارج ، ونفذ الى مكتب صديقه ·· وبعد عشر دقائق ، خرج الحاكم وغليونه فى ركن من فمه ، يودع القاضى ، فمـا رأى الفتى منزويا فى مجلسه من العربة حتى تقدم يصافحه قائلا :

ـ يسرنى أن أراك ثانية يا بنى ·· أتذكر ابنتى فينيلا ؟ انها الآن فى الكلية بلندن ، ولكنها لن تلبث أن تعـــود فى العطلة ، واذ ذاك سأصحبها لزيارتكم ·

وارتاح القاضى لهذا الشعور ·· لم ينبس أحد بكلمة عن

الحادث المشين · وقبل أن يبارح دوجلاس عائدا بابنه ، كان قد اطمأن الى أن الحادث قد مات ·· وقبر ·

* * *

فى نفس الوقت ، كانت ثمة عودة أخرى ·· واســـتقبال آخر ·· يغايران كل المغايرة عودة ستول ، واستقبال القاضى لـــه ·

ففى احدى عربات الدرجة الثالثة من القطار الذى حمـــل ستول الى دوجلاس ، جلست فتاة لا تكاد تتعدى العـــام الخامس عشر من عمرها ، منزوية فى احـــد الاركان كانت الفتاة « بيسى كوليستر » ابنة زوج دان بالدروما ·· لم تكن ابنته هو ، بل ان أبوتها كانت محوطة بالشكوك والريب ، فقد جنحت ذات يوم سفينة ايرلندية بثغر رامسى ، فقضت أياما فى حوضها لاصلاح عطب أصابها ·· وفى خلال هـــذه الأيام ، تهافتت فتيات رامسى على ربانها الايرلندى الشاب ، ولـكن ليـــزا كورتين كانت الوحيـــدة التى نالت الحظـوة فى عينيه ·· فكسبت قلبه ، ثم ما لبثت ان خسرته ، اذ ما كاد اصلاح السفينة ينتهى ، حتى أبحر الربان تاركا حبيبته خلفه غير عابىء بدموعها ·· وفى الربيع التالى ، وضعت ليزا فتاة ·· وبعد عامين ، التقى بها دان كوليستر ، الذى كان يعمل طحانا فى الجنوب ، والذى وفد وهو خالى الوفاض ، حتى من الشعور بمـــا اصطلح النـــاس على أن يعتبروه من عناصر « الكرامة » ·· فما لبث دان ان دخل فى صفقة رآها رابحة ، فتقبـــل ليزا ـ كزوجة ـ وقبل معهـــا طفلتها على أن يدير الطاحون الذى خلفه لهـــا أبوها ، ويعيش فى بيتها ·· وفى الاربـــع عشرة سنة التالية ، ذاقت ليزا الامرين من تانيب دان وتحقيره وقســـوته على طفلتها ·· ولكن الطفلة نفسها لم تعان منه غير ذلك الخوف الطاغى الذى كان يتملكها كلما

www.liilas.com

رأته يمد يده الى سوط معلق على حائط احدى حجرات البيت اعتاد أن يسيطها به كلما أغضبه منها أمر ، فى غير رحمة او شفقة ٠

وهبطت بيسى الى محطة دوجـــلاس ٠٠ لم يكن ثمة من ينتظرها ٠٠ وما كان ليبدو عليهـــا شىء من الاضطراب أو الألم ، فما ارتكبت خطيئة ، وما كانت الفضيحة التى ثارت حول لقائها لأليك جيل غير ضجة بعثها الشجار الذى قام بين الفتى والرجلين اللذين تعرضا له ٠ أما من ناحيتها ، فانهـا لم تفعل اثما يدعو الى العار ٠ بل انها لم تسمح لأليك ، حتى بأن يقبلها ، غير أن ثمة فكرة كانت تستولى على ذهن بيسى فتبعث فى نفسها ذعرا رهيبا ، كانت تتمثل أمام عينيهـــا صورة دان بالدروما يهددها ، وهى تصرخ ، وأمهـــا تضرع وتتوسل اليه ٠

وما لبثت بيسى ان رأت أمها قادمة تقـــود عربة الاسرة المحطمة واقتربت الأم ثم صاحت : رحماك يا الهى ! ما الذى فعلته أيتهـــا البنت ؟ ٠ اما يكفينى ما رأيته من أبيك حتى تزيدينى متاعب ٠

وانهمرت دموع بيسى مدرارا ٠ ولكنها لم تتكلم !

وكان دان بالدروما فى الطاحون حين وصلتا الى البيت ٠٠ ولكن الفتاة ما كادت تنتهى من خلع معطفها ، حتى ســمعت خطواته الثقيلة ، واذا هو قادم ، فاولى المرقد ظهره ، وثبت يديه فى جانبيه ، ثم صاح فى سخرية :

ـ أهلا ، وسهلا ، لقـد كبرت وأصبحت امرأة ، لم تبلغى الستة عشر بعد ، ومع ذلك تنطلقين فى المغازلة والغراميات منذ الآن ؟ ومع ابن أحد عظماء الجزيرة كمـا يقولون ؟ يا له من تنازل منك أن تأتى بعد ذلك الى بيت رجل وضيع مثلى

وغصت بيسى بريقها ٠ وتمتمت الأم تسأله أن يخفف من

قسوته على الفتاة ، ولكنه صاح : اننى لا آبه لغـير سمعتى يا امرأة ، ان الفتاة تحمل اسمى ، فمن حقى أن أدافع عن هذا الاسم ٠٠

ـ ولكنها طفلة ٠٠ طفلة يا رجل ! ٠

ـ لقد عرفت قبلها طفلات جلبن العـــار الى أسراتهن ، اتصبين الى العيش بين السادة الارستقراطيين يا فتاة ؟ اننى رجل بسيط ، ولا يعيش فى بيتى غير البسطاء ٠

وصاحت مسز كوليستر : ولكن الفتى طفـــل هو الآخر يادان ، لا يكبرها فى السن ٠

ـ اصمتى يا امرأة ، انه فى التاسعة عشرة من عمره ٠٠ ما الذى تنتظرين أن يفعله من أجلك يا فتاة بعد مقابلاتك له ونزهاتكما الليلية ، وقبلاتكما المختلسة فى الظلام ؟ أتظنين انه سيتزوجك ، ويجعل منك سيدة قصر بالاموار ؟

ومرت عربة القاضى بالبـاب فى تلك اللحظة ، فى طريقه مع ابنه الى البيت ، فلما ابتعدت أشار دان الى ستول قائلا :

ـ اذن ، فهذا فارسك ؟

فرفعت الفتاة وجهها قائلة : كلا ٠٠ كلا ٠

ـ كلا ؟ ٠٠ ألم يطرد من المدرسة لهذا الحادث ؟

ـ انه خطأ ٠٠ لم يكن ابن القاضى ٠

ـ اذن فمن هو ؟ ٠٠

ولم تجب ٠٠ وعاد يكرر السؤال ، فأصرت على الصمت ، ولكنه تحول الى السوط المعلق على الجدار فوق الموقد ٠٠ وما رأته الفتاة حتى صرخت مرتاعة :

ـ أبت !٠٠ أبت !٠٠

فصاح : لا تسمينى أباك ٠٠ من كان شريكك فى الاثم ؟

وأوشك السوط أن يهوى على جسد الفتاة ٠٠ وفى غمرة الذعر صاحت :

www.liilas.com

ـ حسنا ، ساعترف .. انه .. انه اليك جيل .
ـ أتقصدين ابن رئيس النواب ؟ ..

وفى اللحظة التالية كان الرجل قـــد غادر البيت ، فاعد العربة المحطمة التى طالما حمل فيهـــا محصولات أرضه الى السوق ثم انطلق الى بيت رئيس النواب .

* * *

كان رئيس النواب اذ ذاك ، قد عاد الى البيت مسرعا بعد انفضاض احدى الجلسات يحمل الى زوجه انباء اثارته ، كان يحقد على القاضى ، ويرى فيه غريمه فى تزعم الارستقراط فى الجزيرة ، وفى الاستئثار بمحبة الشعب . لذلك سره اليوم ان علم من الأنباء ما أوحى اليه بان القـــاضى ينحدر نحـــو السقوط ، لقد كان للحادث المشين الذى ارتكبه ابنه أسـوأ الوقع ، ولا بد انه مؤثر على مكانته . لا ســـيما وان أحـــد الرجلين اللذين جرحا فى الحادث ، كان ابنا لقيصر كولتروغ القصاب الواسع الثراء ، واحد نواب الجزيرة ، وقـــد أصر قيصر على أن يفصل القضاء فى هذه الفضيحة ، ليثأر لابنه من ابن القاضى .

وصاح رئيس النواب فى فرح : وهكذا ترين يابيلا ، ان نهاية الرجل قد بدأت

وارتفعت فى تلك اللحظة صيحات « الديوك الرومى » فى ساحة البيت تعلن مقـــدم شخص غريب . ثم فوجىء بابنه يدخل مشعث الهيئة ، مغبر الوجه ، متهدل الثياب ؛ تعلو حذاءه طبقة كثيفة من التراب ، فصاح :

ـ ما هذا يا اليك .. افررت من المدرسة ؟
ـ اجل .. لأن ستول فصل ، فلم أستطع البقاء بعده .
ـ ولماذا ؟ .

ـ لانه برىء .
ـ برىء ؟ . وانى لك أن تعرف ؟
ـ لاننى المذنب يا سيدى .

وسادت لحظة صمت رهيبة ، لهث خلالها الأب وكأنه قـد قطع شوطا طويلا وهـــو يجرى . ثم ما لبث الابن ان طفق يقص الحادث فى صوت متهدج مضطرب . لقـد ثار ضميره اذ فصل ستول رغم انه اعترف للناظر انه هـو المذنب الذى رؤى مع الفتاة ، لذلك لم يستطع البقاء ، فتسلل خلسة من المدرسة ، ولم تكن معه نقود ما ، فما تردد فى أن يقطـــع الطريق على قدميه ، عارجا على بيوت الفلاحين كلمـــا اضناه التعب أو برح به الجوع .

وصاح الأب : أتعنى أنك فعلت كالمتسولين ؟ أيها التعس! أيها الغبى !

وقالت الأم : ومن هى الفتاة التى رؤيت معك يا اليك ؟
ـ لقد كانت .. خادما .

وصاح الأب من جديد :

ـ هل قلت انك اعترفت للناظر ؟ . حسنا ، فما دام قد رأى أن يهمل اعترافك ويفصل الفتى ، فما الذى دعاك الى الفرار ؟ .
ـ كان من الخطأ ان يفصل ستول لذنب انا مرتكبه .
ـ هل قدرت أقاويل الناس عندما يعرفون فرارك ؟. لسوف يكون ستول الجندى المجهول فى هـــذه الحكاية ، ولسوف تعود انت الى المدرسة .
ـ ان على ان أؤدى واجبى نحو زميلى يا سيدى ؟ .
ـ وواجبك نحوى .. ونحو أمك .. ونحو اخواتك . ؟ أينحصر هذا فى جلب العار علينا ؟ . اذهب فاغتسل واملأ بطنك فستعود الى المدرسة .

www.liilas.com

ـ لن أعود يا سيدى .. واذا أجبرت فسأفر ثانية .
ـ اذن فلن يكون لك فى بيتى مقام .
ـ اذن فسأستقل أول سفينة الى .. الى الجحيم .
وخرج الفتى ، فظـــل الوالد يحرق الارم غيظا ، بينما انخرطت الأم فى البكاء .
وعند ذاك ، سمعت صيحات « الديوك الرومى » ثانية .. كان دان كوليستر بالدروما يخترق فناء البيت الى الداخل .

* * *

ولج دان الحجرة وعيناه تشعان انفعالا ، وقـد تجلت على أساريره امارات التحدى والرغبة فى النزال ، فألقى التحية على رئيس النواب وزوجته ، ثم أعلن أنه جاء ليدفـــع أجر الأرض التى يستأجرها من الرئيس ، وأحصى هذا الاوراق المالية التى دفعها اليه دان ، ثم حرر الايصـــال ، ولكن دان لم ينصرف عقب هـذا بل تلكأ ، ثم قال : والآن يا سيدى ، لقد انقضى اليوم عام على اســتئجارى للأرض ، ولكن ويلى كيرويش المحامى أخبرنى انك لا ترغب فى تجديد العقـد ، فهل تراك مصرا على هذا ؟
ـ بكل تأكيد ، فاننى أعتقد أنك تصلـــح لصاحب أرض غيرى ، واننى أليق بمستأجر سواك .
وسادت فترة صمت ، ثم قال دان فجأة : سيدى الرئيس، لقد عاد ابن القاضى اليوم ، ملطخا بالعار .
ـ وما لهذا وموضوعنا ؟
ـ ولقد جاءت أبنتى ـ أعنى ابنة زوجتى ـ ملطخة بالعار أيضـــا .
فصاحت مسز جيل : اذن فهى ابنتك .. ؟
وصاح الرئيس : وما شأنى وهذا كله .. ؟
ـ لقد أخبرتنى الفتاة ان هناك خطأ فظيعا ، فابن القاضى برىء ، لأن المذنب شخص سواه .

ـ أرى انك على علم ، فماذا تبغى ؟
ـ ان قيصر كولتروغ لم يصمت مؤقتا عن الثأر لابنه الا من أجل القاضى ، فـلو عرف ان المذنب الذى ضرب ابنه شخص آخر فقد ..
وصمت ، وصمت الرئيس ، ثم قال هذا :
ـ اننى أفهم خطتك يا مستر كوليستر ، ولكننى أرجو أن توفـــر التعب على نفسك . ان ابنى الآن فى البيت ولكننى سأرسله عبر البحر ، وسيغادر الجزيرة قبـــل أن تصل الى كولتروغ .
ـ وماذا يقول أهـــل الجزيرة ؟ ان رئيس النواب الذى يزاحم القاضى فى مكانته ، أرسل ابنه للخـارج ، لينقذه من السجن ؟
وتحفز جيل فى سورة الغضب ، وتقدم خطوة رافعا يده، ولكنه فى اللحظة التالية تركها تهـــوى الى جانبه ، وأطرق لحظة ثم قال :
ـ حسنا ، سأتحدث الى كيرويش فى أمر عقـــد ايجارك غدا .
وظل رئيس النواب وزوجه ينصتان حتى تلاشت خطوات الرجل ، ثم قال الرئيس : هذا ما يعود علينا من انجـــاب الاطفال .. لقد ظننت ان القاضى أصيب بالعـــار ، فاذا أنا الذى لطخت به . واذا بى أرضخ لحقير كدان بالدروما .
وتمتمت زوجه ببضع عبارات تخفف عنه ، وهـــو يأمر الخادم باستدعاء ابنه ، حتى اذا أقبل هذا ، قال له :
ـ لن ندعك تركب البحر ، فليس لنا غير ولد واحد ، واعتقد انه من الخير أن نحاول الاحتفاظ به ، ولما كنت تأبى العودة الى الدراسة ، فقـــد رأيت أن أرسلك الى مزارع اندرياس لتتدرب على الاشراف على ادارتها ، ولكن أرجـو أن تعلم ان

www.liilas.com

دان بالدروما كان هنا ، وقد عرفنا شريكتك فى الحادث ، ولسنا نبغى أن يتكرر ما حدث فهل تعدنى ألا تراها أو تحدثها طيلة عمرك ؟

وفى حرارة واخلاص ، وعده أليك .

الفصل الرابع
فينيلا ستانلى

انقضى الشتاء وأعقبه الربيع والقاضى صامت لا ينبس بكلمة عن مستقبل ابنه وستول قانع بالعيش فى القصر ، يقضى أيامه فى ابتكار النكات التى ذاعت فى ريف الجزيرة وجعلت منه زعيما للمرح .. ويجول فى الانحاء ، واليك جيل بصحبته لا يفارقه غير عابئين بمرور الزمن ، أو حاسبين للعمر حسابا .. فقد رضخ أليك فترة لارادة أبيه فى تولى الاشراف على مزارعه فى أندرياس ، ثم ما لبث ان تولاه الملل، فخلفها الى حيث اجتمع ثانية بصديقه .

وكان القاضى فى هذه الاثناء يرقب ابنه وأطواره فى سكوت ثم يسجل ما يراه فى المذكرات ذات الغلاف الجلدى ، وجانيت تلاحظ كليهما وفى نفسها اشفاق على القاضى الكهل ، وأسى لتقاعد الابن الشاب العزيز الذى كثيرا ما حاولت أن تبعث فى نفسه الطموح عساه يسعى الى اصلاح مستقبله .. فكانت تجلس فى حجرته ، تحدثه وهى ترتب ملابسه ، أو تجمع القذر منها ، متظاهرة بانها تزجى كلاما عابرا .. ولكن ستول لاحظ انها فى كل مرة كانت تنتهى الى موضوع واحد .. الى الحديث عن فينيلا ستانلى ، التى كانت تنمو حثيثا ، وتزداد كل يوم روعة وجمالا .. كانت ما تزال تتابع دراستها فى كلية نيوهام بلندن فى تفوق جعلها فى مقدمة زميلاتها ، وأكثرهن حظوة بالجوائز

المدرسية .. وكانت الجزيرة بأسرها تتحدث بانبائها ، وتتغنى بحمدها وتكبرها وتعزها .. وكانت جانيت تتلقى أخبارها من مس جرين — التى كانت تشرف على بيت الحاكم — والتى كانت تراسلها باستمرار .

وأثمرت أحاديث جانيت فى نفس ستول ، فاذا به يقارن بين نشاط فينيلا وخموله واذا به يتحدث الى صديقه أليك جيل عنها كلما اجتمعا .. ولكنه لا يلبث أن يعقب على حديثه قائلا :

— ولكننى أكره المرأة التى تتشبه بالرجال .

فيجيبه أليك : وكذلك أنا .

وفشلت جانيت فى بلوغ الاتجاه الذى كانت ترمى اليه . ولكن للطبيعة شأنا آخر .. كان قلبا الشابين ما يزالان بكرين ، لم يتفتحا بعد ، ولكن ثمة عالما آخر كان مقدرا أن يتكشف لهما مهما طال الاجل .. عالم المرأة ! .

* * *

الى أن كان ذات يوم ، وستول يخترق المراعى بعد أن افترق عن جيل فى نهاية تجوالهما ، متجها نحو قصر بالاموار .. كان يبدو كعملاق صغير ، لفحت الشمس بشرته، وأنمى طول التجوال جسمه ، وقد ارتدى حذاءين طويلين بلغا ركبتيه ، ورفع كمى قميصه عن ذراعيه ، وحمل سترته على كتفه .

وأشرف على النهر ، فاذا به يقف فجأة وكأنما لاح له شبح غريب .. كانت ثمة فتاة ، فى حوالى السابعة عشرة من عمرها ، عارية الرأس حافية القدمين ، وقد وقفت والمياه تغمر ساقيها ، تحاول الوصول الى غصن شجرة توت كانت تقوم على الشاطىء . وكانت هيفاء ، ذات شعر برونزى

www.hilas.com

اللون ، انعكست عليه أشعة الشمس فابدته كذهب لامع ·· وتمثلت لعينى ستول كاملة الأنوثة ، فاتنة ·· رائعة !·

وكأنما أحست الفتاة بوجوده اذ التفتت نحوه فى هدوء وشىء من الفضول · ووجد نفسه يتوقف عن الاقتراب كى يحدق فيها فى وعى · وسادت فترة صمت ، ثم سبقته الفتاة الى تمالك نفسها ، فأشرق وجهها بابتسامة عذبة ، ثم وفى صوت يتردد فى أذنيه كموسيقا حبيبة قالت كأنها تتابع حديثا سابقا :

ـ ولكنك ولا شك لا تعرفنى ! ··

ولكنه كان يعرفها رغم ما عراها من تطـــور ·· كانت فينيلا · ولم يذكر ستول قط فيما بعد ، كلماته الاولى التى قالها لها ·· ولكنهما سرعان ما راحا يتذكران المرات الثلاث التى التقيا فيها من قبل ·· ويرحبان بلقاء اليوم ·· فقد شاء الحاكم أن يسعد فتاته التى عادت الى الجزيرة لتقضى أيام عطلتها ، فأقبل معها يقضيان يومين فى ضيافة القاضى ·

وعاد الفتى والفتاة الى قصر بالامواز ، وهما يبدوان كما لو كانت الألفة ضمتهما لسنين بعيدة مضت .

* * *

فى ذلك المساء ، خلف ستول وفينيلا والديهما فى المكتبة ولجآ الى شرفة تطل على شاطىء النهر . فراحا يتجاذبان أطراف الحديث الى أن تطرقت فينيلا الى الكلام عن حركة جديدة فى انجلترا ترمى الى تحسين مركز المرأة فى الحياة ·· واستمع ستول الحديث الذى تدفقت فيه متحمسة ، وهو لا يكاد يفقه شيئا بل كان يجاريها فى وجوم ·· ولكنه مالبث أن انصت فى اهتمام . حين افضى بها حماسها الى الحديث عن ضرورة تعديل القوانين والتقاليد القديمة لتغيير المركز

الحقير الذى كانت هذه القوانين والتقاليد تلقى بالمرأة اليه .

وسألها ستول : وما رأى أبيك . ؟

فقالت : انه لا يوافق ولكن .. (ثم ضحكت وخفضت من صوتها) .. ولكن لكل منا رأيه الخاص .

ودعاها ستول الى زيارة أطلال الكنيسة القديمة المجاورة للقصر . ليستمتعا بمشاهدتها وهى غارقة تحت أشعة القمر الفضية وبينما اسرعت فينيلا لتحمل من الحجرة التى خصصت لها ازارا تطرحه على كتفيها ، وقف ستول ينتظرها وقد احس للمرة الاولى بتلك الصحية المرتجفة .. ذلك النداء الفذب . نداء الجسد والروح .

وانطلقا فى طريقهما وهما يستشعران نشوة لوجودهما معا وانتهيا الى الاطلال الراسفة فى قيـــود العزلة المستكينة الى وحدتها الصامتة الموحشة فتشبثت فينيلا بذراع ستول وهما يجوسان خلالها ·· وداخلهما شـــعور غريب خفق له قلباهما ولكن كلا راح يقاوم فى نفسه . ثم احس كل انه يود لو يفر من المكان قبل ان يجتاحه هذا الشعور ويضطره أن يكشف امام صاحبه مايريد أن يبقيه فى اعماقه سرا مكتوما

ولأول مرة نأى النوم عن عينى ستول . فلم يزره طيلة الليل ، اذ أنه ما كاد يخلو الى نفسه فى حجرته حتى شعر بالخجل والعار ، ان فينيلا ـ وهى فتاة ـ تمس الحياة ، وتبحث مشاكلها ، وتدرس أمورها ، فى اهتمام وتحمس ، فما أحراه ـ وهو رجل ـ ان يفعل ذلك ·؟

بيد أن شعورا آخـــر كان لا يلبث أن يطغى على التأنيب النفسانى الذى تولاه ، شعورا من الفرح واللذة ، جعله يحس دفئا ودورا هفا بجفنيه فأطبقهما ، ولكنه لم ينم ، بل مضى يستعرض المناظر التى عرضت له ولفينيلا طيلة اليوم

وفى الصباح التالى ودع الحاكم صديقه وصافح فيكتور ،

www.hilas.com

ثم صعد الى عربته معتزما العودة ، وشدت فينيلا على يد القاضى ، وقبلت جانيت ، ثم اشاحت بوجهها متجاهلة فيكتور ، وتبعت أباها ، وعصر الألم قلب الشاب ، ولكنه ما لبث ان رأى الفتاة ـ حين وصلت العربة الى منعطف فى الطريق ـ تنظر نحوه ، ثم تمد يدها من نافذة العربة ، فتلوح اليه فى اشارة خفيفة ، ثم خيل اليه ان الشمس تخبو والعالم يقفر .!

وفى ذلك المساء ، طلب فيكتور من ابيه ان يرسله الى مكتب النائب العام ، ليتلقى مبادىء القانون ، توطئة لاحتراف المحاماة

ولأول مرة تكلم القاضى .. فقال : حسنا .. جدا

الفصل الخامس

أمل وأسى ..!

لم تكن فينيلا ستانلى قد عرفت للنوم طعما ، هى الأخرى ، فى تلك الليلة ما كانت لتجهل ذلك الشعور الذى راح يعروها فيبعث الدماء حارة فى عروقها ، ثم تولاها الم مرير ، كان مقدرا ان ترحل مع أبيها فى الصباح التالى ، باللتعاسة ، أى وحشة تنتظرها فى قصر الحاكم عند عودتها

وقام فى نفسها صراع غريب عندما تذكرت انها لن تلبث بعد اسبوعين أن تعود الى الكلية والى الانغماس فى الحركة التى أوقفت عليها جهودها .. الحركة النسوية .. صراع بين واجبها نحو الحركة التى كانت تريد أن تكرس حياتها لها . وبين الأنوثة التى استيقظت فى أعماقها فجأة ، بعد السنوات التى قضتها فى صحبة ستول .

* * *

ورحلت فينيلا ، فاذا بها فى انجلترا نهبة للأشجان ، وفريسة للشقاء .. لولا أن مس جرين ـ ربة بيت الحاكم

ومربيتها ـ كانت تواتيها بأنباء فيكتور فى رسائلها فكان هذا يبعث الى نفسها شيئا من التسرية والعزاء .. وكتبت اليها مس جرين يوما فأرفقت برسالتها خطابا من جانيت تسأل فينيلا فيه صورتها ، فقصدت الى كمبريدج حيث التقط لها مصور مشهور ، صورة رائعة ، بادرت الى ارسالها .. وهى غير غافلة عن الشخص الذى طلبت جانيت الصورة من أجله .

واقتربت اجازة عيد الميلاد .. ولكنها رات نفسها تخشى ان ترحل الى الجزيرة وان تلتقى بفيكتور ستول .. كان فى نفسها خليط من مشاعر غريبة لا أثر للعقل او المنطق فيها ولذا قررت ان ترحل لقضاء عطلة العيد فى ايطاليا .. ولكنها ماكادت تحصل على موافقة أبيها ، حتى مضت تلوم نفسها باكية جزينة .

ان قلب العذراء عميق يضم مشاعر عجيبة لا يعلم سرها غير خالق هذا القلب .

* * *

كان ستول فى تلك الاثناء منكبا على دراسة القانون ـ تحت اشراف النائب العام ـ فى جد واهتمام وراحت مواهبه تتكشف فى جلاء بهر عارفيه ، حتى لقد كتب النائب بعد بضعة أشهر لقاضى القضاة يقول : « اذا لم أخطىء التقدير فانني على يقين من أن ابنك سيغدو من أشهر المحامين . أنه قانونى بفطرته » ولم يقنع فيكتور بهذا ، بل استعد فى الوقت نفسه ومالبث ان تقدم للامتحان سعيا وراء الاجازات العلمية التى حرم منها لفصله من مدرسة الملك ويليام ، وكان ان نالها بتفوق عظيم ، فراح عظماء الجزيرة يتنبأون له بمستقبل زاهر مجيد .

www.liilas.com

ولحق به صديقه اليك جيل فى دراسة القوانين فى مكتب النائب العام . ولكنـــه لم يكن قط ـ ولم يكن أحـــد من زملائهما فى المكتب ـ ليستطيع أن يبز فيكتور ، كان قد وهب نفسه للمجد ، يحفزه الامل والطموح .

وكانت راحته الوحيدة هى عطلة آخر الاسبوع التى كان يأوى فيها الى قصر بالاموار . فينعم فى الأمســـيات بالجلوس الى أبيه يستمع الى احاديثه عن العدالة التى كان يصورها له كأقدس شىء على الارض ، او الى ماكان يقرأه له أو يقصه عليه عن أشهر المحاكمات فى جزيرة مان ، وأكبر الجرائم ، وأعظم المرافعات .

ولكن اللذة كانت لا تعادلها لذة ، هى تلك التى كان يجدها اذا ماانفرد مع جانيت ، عندما يأوى الى حجرته . كانت جانيت ترقب جده واجتهاده فى شغف ورجاء ، متطلعة الى المستقبل الذى تعده له مترقبة المجد الذى طالما استحثـــه الى السعى اليه . وكانت تحدثه دائما عن فينيلا ستانلى ، أحاديث مستترة ، تكتم فى أعماقها مالا ينم مظهرها ، كانت دائما تحلم باليوم الذى ترى فيه الشابة الجميلة تحل محلها فى رعاية الفتى الحبيب . وتملأ الفراغ الذى تركته سيدة القصر بعد موتها . واعتاد فيكتور من ناحيته أن يســألها اذا ما آوى الى حجرته :

ـ هل من أخبار حملتها اليك مس جرين ؟

فكانت تقص عليه ماليديهـــا .. وفاجأته ذات ليـــلة اذ سألها عن الصورة التى أرسلتها الفتـــاة . فأشرق وجهه . وحمل الصورة بيدين مرتجفتين فوضعها تحت المصباح ومضى يتأملها ، فى شغف وفرح ، وقرر أن يحتفظ بها لنفســـه .

* * *

وانتهت دراسة فيكتور واليك بعد خمس ســـنوات ، وتقدما الى الامتحان أمام قاضى القضاة الجديد الذى خلف

ستول الكهل فى منصبه بعد استعفائه . والذى كان يدعـى « توبمان » ..

واجتاز ستول الامتحان الرهيب فى انتصار وفوز .

ولكن اليك اضطر الى ان يعود الى الدراسة ستة أشهر أخرى .

وعاد ستول الى قصر بالاموار والدنيا لاتكاد تسعه لفرط فرحه ، لقد فعل أخيرا مايستوجب رضاءه عن نفسه . وما يجعله كفئا لأن يفكر يوما فى فينيلا وهو مطمئن الى انها سوف ترضى عنه هى الأخرى

ووجد أباه يوم وصوله الى القصر جالسا فى حديقة القصر فلما رآه . أبرقت عيناه غبطة ، وترقرقت فيهمـــا دموع الهناءة ، وصافحه لاول مرة فى حياته قائلا :

ـ حسنا .. أحسنت كل الاحسان !

وعندما فرغا من العشاء ، جلس أبوه يحدثه حديثا ما سمعه من قبل كان يعرف أن بغية كل قانونى هى أن يغدو يوما قاضيا . فللقضاء مركزه العظيم السامى ، وله قداسته .

ولكن .. اذا كان مركز القاضى عظيما . فان تبعاته أعظم وأجل .. تعسا للقاضى الذى يسمح لمصـــالحه الخاصة أن تؤثر على أحكامه .. وألف حسرة على الذى يرتكب جرمـــا ضد العدالة !

ولم يجد فيكتور الفرصة ليفاتح اباه فى الموضوع الذى يشغله .. فى أمر فينيلا .. لذلك أرجأ الامر الى الغد .

وآوى الى حجرته ، فاذا بجانيت لا تنتظره كعـــادتها ، وقيل له انها لجأت الى فراشها مبكرة لتعب ألم بها .. ولكنها كانت أول وجه طالعه فى الصباح .. كانت متجهمة مقرحة الجفون ، بادية الأسى ، فصاح جزعا يسألها عما بها وفى مجهود شاق ، وبعـد تردد طويل ، مضت تذكـر له

www.liilas.com

السبب فى لهجة محطمة ، وهى تشفق عليه من الصدمة فلقد أنبأتها مس جرين ان فينيلا قد وقعت عقدا مع الجمعية النسائية بلندن ، لتشغل منصب مراقبة الجمعية لسبع سنوات ، بعد أن أتمت دراستها .

وصاح فى لوعة : سبع سنين ! ؟

وخيل اليه ان شعلة الامل التى حفزته على الجد فى دراسة القوانين وعلى الفوز الذى ناله فى السنوات الاخيرة قد خبت وخمد ضوؤها .. وظل برهة صامتا لاينبس ببنت شفة ، ثم صاح ضاحكا :

ـ يالله ! . اى سخرية هذه !

وكانت ضحكة فارغة جوفاء .. وأتت جانيت وتمتمت تواسيه ، ولكنه فى اللحظة التالية تهالك على فراشه ، ودفن وجهه فى الوسادة ، واطلق لدموعه العنان .

وصاحت جانيت : كفى أيها العزيز !. تجلد ! .

ونهض اذ سمع هذه الكلمات ، فمسح عينيه فى قسوة ، وقال فى عزم أكيد :

ـ حسنا ياأماه .. لقد كنت أحمق ، ولكن هذا التصرف لن يبدر منى ثانية .. أبدا ! .

الفصل السادس
دنيا المرأة

قضى فيكتور ستول الساعتين التاليتين فى القضاء على كل أثر يذكره بفينيلا حتى صورتها التى كان قد أحاطها باطار جميل ، انتزعها من مكانها ووضعها فى أحد أدراج مكتبه ، وحتى قصاصات الصحف التى تتحدث عن قسوة القوانين ازاء المرأة والتى جمعها خلال السنوات الخمس الأخيرة اهتماما منه بالحركة التى تتحمس لها فينيلا ما لبث أن ألقى بها فى النار ، ومع ذلك ، فقد خيل اليه ان روحها

تطوف بقصر بالاموار وضواحيه ، ويزور الأماكن التى زارها معا فى المرة التى نزلت فيها مع أبيها ضيفين على القصر .

ومرت بضعة أشهر وهو سادر في حزنه واساه ، وقد ثقلت به الهمة المضى فى سبيل المجد . كان امره عجبا . أنه لم يصارح فينيلا بأية عاطفة .. لا ولم تكن بينهما عهود أو مواثيق .. ومن أدراه أنها تحبه أو أنها تشعر بحبه لها كان أحمق بنى على الرمال قصورا . فما لبثت ان انهارت ، وخلفته كسير القلب ، وقد فقد كل شعور بالهناءة !

وما غفل أبوه عن حاله هذه ، ولكنه لم يحدثه أو يسأله عما به ، بل كل ما فعله ان اقترح عليه يوما أن يقوم برحلة الى الخارج .. وصادف الاقتراح هوى فى نفسه ، وسمع به اليك جيل فهرع الى أمه يرجوها ان تسأل أباه السماح له هو الآخر بالسفر الى الخارج . فقد كان يعرف ان ليس ثمة من يؤثر على أبيه أكثر منها ، ومالبث الشابان أن رحلا دون وجهة معينة .

وانصرم عامان زارا خلالهما أمريكا واليابان والصين والهند ومصر ، وبعض بلاد القارة الأوربية ، ولن يعنينا الاسهاب فى وصف هذه الرحلة وما شاهداه خلالها ، ولكن الذى يهمنا هو ذلك الأثر الذى خلفته فى نفس الشابين . اما جيل فقد سرت فى جسده سمات جديدة من الحياة بعثت فيه قوة ، وزادت وجهه اشراقا وأما ستول فظل خلال الأشهر الأولى يشقى بآلامه وأوهامه ، ولكن روحه ما لبثت ان أخذت تناضل حتى تخلصت من الأزار المقيت الذى طرحته عليها الأحزان . فما لبث وجه فينيلا ستانلى وقد كان اقرب الوجوه اليه والصقهم بذاكرته ، ان اخذت ملامحه تخبو وتنمحى من ذاكرته .. وليس اقدر على مواساة جروح القلب الذى طعنته امرأة من امرأة اخرى . وفى

www.liilas.com

الحقبة الأولى من الشباب العذرى ، تمتلىء الدنيا بالنســـاء اللاتى يرقن لعين الشاب .

وهكذا جلت النساء اللائى التقى بهن فى رحلته ، مرارة الألم عن نفسه فاستعاد مرحه شـــيئا فشيئا ، وعاوده النشاط والطموح . فما كاد يعود الى الجزيرة حتى قرر مع جيل ان يبدآ حياتها العملية كمحامين . واتخذ جيـــل من بلد دوجلاس مقرا لمكتبه ، بينما راى ستول أن خير موقع يلائمه هو ميدان « البوسته القديمة » فى رامسى ، فافتح مكتبه هناك .. ومضيا يقتحمان طريقهما فى الأوساط القانونية وسرعان مابرز ستول فى هذه الأوساط بمرحـــه وروحه الفذة ، فتجمع حوله شباب المحامين ، ومالبثوا ان كونوا فيما بينهم جمعية صغيرة لاقامة حفلات اســـبوعية تضمهم بعيدا عن جو العمل . وبين أحضان المرح والسرور واختير فيكتور ستول ، رئيسا لجمعية « ايلان فانين » أى « جزيرة مان »

* * *

كانت الجمعية محكا لذكاء ســـتول وعبقريته وروحـه المرحه ، فقد اقبل فى الاجتماعات الاســـبوعية يحاضرهم فى دراساته القانونية المتواصلة أو يأسرهم بأحاديثه العذبة ونكاته المرحة المضحكة ، حتى راح الكل يتناقلونها عنـــه فاذا هى تذيع فى الجزيرة من أدناها الى أقصاها .. وكان جريئا فى انتقاداته لمساوىء كبار رجالات الجزيرة ، اذا ما اتهم من أحدهم انحرافا عن الحق ، أو عرف عن بعضهم تلاعبا بمصالح الجزيرة ، حتى أوغر صدور هذا البعض بالحقـــد عليه ، بينما جمع حوله قلوب الأهالى الذين رأوا فيه صـــوره أخرى من صور ابيه . ولكنها ليست صورة الرجل الهادىء الذى يتغلب على حاسديه وماقتيه بصمته ورزانته ، بل

صورة الشاب الذى يهزم خصـــومه بذكائه وسخريته التى تثير حولهم عاصفة من الضحك والهزء .

وفكر ضحـــاياه فى طريقة للتخلص منه ومن جمعيته ووجدوا عونا لهم فى امرأة سيئة السمعة تحوم الريب حول بيتها تدعى « فانى » .

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى لأحد اجتماعات الجمعية ، سرت اشاعة عن أن البوليس هاجم بيت فانى فى منتصف الليل ، فى الوقت الذى اعتاد فيه الاعضاء أن ينفضوا ليسرعوا الى دوجلاس كى يلحقوا بآخر القطارات الليلية .. وكان أمل خصوم ستول أن يجده البوليس فى بيت المرأة . فتسوء سمعته ويلطخ اسمه بالوحل . ولاتقوم له بعد ذلك قائمة .. ولكن اذا كان حقا ان بعض أعضاء الجمعية كانوا يأوون بعد انفضاض اجتماعاتهم الى بيت فانى فان ستول كان لايعرف قط الطريق الى هـــذا البيت . وكان ضحية المؤامرة هو اليك جيل ، فقد عمـــد أعـــوان المتآمرين الى التغرير به حتى قادوه الى بيت المرأة فى ذلك المساء .. وظن خصوم ستول أن فى وقوع صديقه فرصـــة للنيل منه ولاحاطة جمعيته بالريب والشـــكوك ولكن ستول لم يكن بالسهل الرضوخ . وكان كما توقع الكل على استعداد كى يدافع عن صـــديقة امام المحكمة .. كان يدرك ان القضية قضيته هو . وفى مهارة وحذق راح يرهق رجال البوليس الذين وقفوا موقف الشهود حتى جعلهم يتضاربون فى أقوالهم . ثم تحول يحيط جيل بكل مظاهر البراءة والطهر وماعتم أن تحول يوجه الاسئلة الى « فانى » حتى ضيق عليها الخناق ، فاذا هى تعترف فى النهاية انها كانت أداة فى أيدى خصوم ستول وزملائه للايقـاع بهم ، ومن ثم .. وقف ستول يندد بهؤلاء الخصوم فى ســـخرية لاذعة ونقد مرير حتى جعلهم أضحوكة القوم . ولم يكن أمـــام القاضى

www.liilas.com

الذى نظر القضية بعد ذلك من الحكم بالبراءة .

وازداد اعجاب القوم بستول بعد هذا النجاح .. بل ان الحاكم نفسه كان من أشد المتحمسين له . بينما كان رئيس النواب يسخط عليه ويحقد عليه لتوفيقه ، فى الوقت الذى كان ابنه اليك جيل ممعنا فى الركون الى الخمول فراح يقول لكل من يحدثه عن ستول :

ـ حقا انه ماهر قذ ، ولكن ، سترون قريبا ، سياتى اليوم الذى يستيقظ الشعور بالمسؤولية فى نفسه ، حادث يظهر مدى رجولته

وما كان هذا الحادث بالبعيد المدى ، فقد أقبل الصيف بعد ذلك ، واتفق الصديقان « فيكتور واليك » على ألا يجعلا أعمالهما تحول بينهما وبين اقامة معسكرهما الصيفى فى الخلاء كما اعتادا فى كل عام

وانطلقا ذات صباح من معسكرهما يطوفان بالمراعى القريبة ، وفجاة سمعا وقع حوافر قطيع من الماشية والاغنام فتلفتا نحو مصدر الصوت ، وفى اللحظة التالية ، همس جيل الى صديقه أن ينبطح بجانبه على الأرض خلف صخرة قائمة وبثما تمر الفتاة التى كانت تقود القطيع ، وعجب ستول لصديقه ، فى الوقت الذى وجد نفسه فيه يبهت لجمال الفتاة ويتبعها بنظراته حتى ابتعدت

وصاح فيكتور : ياللروعة ، لكأن الشيطان اودع فى هذه الفتاة كل أسباب الغواية والفتنة .

ولكن جيل وجم ولم يجب .

ووجد ستول فى نفسه رغبة طاغية فى أن يتبع الفتاة فاذا هو يدور حول الصخور ، ليعترض طريقها فجاة ، وكانه عابر لا مقصد له ، واستجمع أطراف شجاعته ليخلق فرصة للحديث فانتقل من التحية الى الحديث عن الجو ، الى بعض نكاته التى حملت الفتاة على الاستغراق فى الضحك ،

كان غير خبير بنفسية المرأة وكانت هذه أول مرة يحاول فيها استثارة اهتمام فتاة ، فتولته النشوة اذ رآها تضحك لنكاته مبدية اعجابها ، وما تردد عن أن يترك صديقه وحيدا فى المعسكر ليقضى اليوم بجانب الفتاة يلعب معها كطفلين صغيرين ، حتى حان موعد عودتها بالقطيع فسار فى خطوات متثاقلة الى المعسكر ، وصاح وهو مقبل على جيل :

ـ يالها من فتاة .. وددت لو اتبعها الى أقصى اطراف الارض .

فقال جيل : بل وددت لو ترجع عنها . ألم تعرفها ؟ .

انها بيسى كوليستر .

ـ تلك الفتاة .. صاحبة الحادث القديم .

ـ أجل .

ـ اذن . دعنى اعتذر . لأنها من حقك على ما أعتقد .

ـ هراء . فانا لم أحدثها منذ ذلك اليوم وقد وعدت أبى ألا ألقاها أو أن أكلمها وسأظل مقيما على وعدى .. ثم .. هناك دان بالدروما . زوج أمها .

ـ ذلك المهرج الذى ينشر الفوضى فى الجزيرة ؟

ـ انه رجل شرير ..

ولكن فيكتور فى الصباح التالى ابتعد عن المعسكر ووقف يترقبها . وهو يكرر لنفسه بين آونة واخرى :

ـ يا لله .. أى فتاة .. هاتان الشفتان الشهيتان . هذا الوجه المتورد الساحر .

لقد استيقظ فى نفسه عاطفة جديدة شعر لها بنشوة جعلته يستكين اليها .

شعر لها بنشوة جعلته يستكين اليها .

الفصل السابع
عهد وميثاق

لم يكن وجد فينيلا ليقل لهيبا عن ذلك الوجد الذى تملك ستول حتى أفقده زمنا مرحه وهناءته .. كانت تود عندما

www.liilas.com

أتمت دراستها لو أنها أستعارت من الطيور جناحين يحملانها الى الجزيرة حيث تلقى الفتى الذى خفق له قلبها وأن حال الحياء العذرى بينها وبين أن تطلق للقلب العنان كى يتحدث بما يشجيه .

ولكن التيار الذى كانت مندفعة معه .. تيار الحركة النسوية التى أوقفت عليه جهودها .. كان جارفا .. فما تمالكت اذ رأتهم يعرضون عليها منصب مراقبة الهيئة النسوية ـ وهو منصب فخرى لاتتقاضى عنه أجرا ـ ان نزلت عند ثقة زميلاتها فيها .. وفى غمرة الشعور بالواجب والتطوع للكفاح ، قبلت أن توقع العقد للبقاء فى المنصب سبع سنوات .. بيد أنها أفاقت بعد ذلك بدقائق ، فاذا بها فريسة لتأنيب قاس انهال بعد ذلك به عليها القلب الذى رأى فى عملها حرمانا له من النعيم الذى كان يرجوه بجانب قلب ستول .

وتراءت لها خطابات مس جرين أداة للانتقام أرسلها اليها القدر ليعذبها ، فقد كانت توقظ ثورة الحنين فى أعماقها بما كانت تحمله من أنباء ستول ، وفترة القنوط التى رانت عليه فى أول الأمر ، وجعلته يسير فى الحياة كجسد بلاروح . ولا أمل .. ولا مطمح !. وخيل اليها أن واجبها يناديها كى تعود الى الجزيرة كى تنقذه .. ولكنها ظلت تقاوم وتناضل وهى نهبة للصراع العنيف بين الواجب والحب .. حتى اشفقت عليها الاقدار ، فاذا بالسنوات السبع تنصرم ، واذا هى تبادر بتقديم استقالتها معلنة عدم رغبتها فى تجديد العقد .

ولكن الواقع لم يقتصر على هذا فقط .. فقد كانت شقيقات اليك جيل يكتبن لفينيلا باستمرار .. وكما كان أبوهن يحقد على القاضى ستول ، كانت الفتيات يمقتن الشاب ، ويرين ـ كما يرى أبواهن ـ انه سبب افساد

مستقبل اليك .. وكن فى نفس الوقت يرقبن عن كثب تطور العلاقات بين ستول وفينيلا ، فى امتعاض وسخط .. كن يردنها لأخيهن ، فهو ليس اقل جمالا أو رشاقة أو رجولة من ستول . لذلك كن ينتهزن كل فرصة يكتبن فيها الى فينيلا كى يحاولن الاساءة الى عقيدتها فى ستول ، حتى لقد صورته مقبلا على فتيات الجزيرة ، يداعبهن ويفازلهن غير عابىء بشىء .. ولكن سهمهن أخطأ الهدف فبدلا من ان تثور فينيلا على ستول لهذا ، أحست فى أعماقها بالرغبة فى الكفاح .. ضد فتيات الجزيرة بأسرها للفوز بفتاها وانقاذه لنفسها .

* * *

على أن فينيلا لم تكن الوحيدة التى ترامت اليها مثل هذه الانباء عن فيكتور بل كثيرا ما سمعت جانيت هى الأخرى الأقاويل عن التفاف فتيات الجزيرة حوله وتهافتهن عليه .. ولم يزعجها هذا ، فقد كانت واثقة من أن الفتى الذى ربته بنفسها لا يجرؤ قط على ارتكاب نقيصة أو اتيان اثم .. ولكنها خشيت أن تلين مقاومته فى المستقبل فيستسلم للغواية .. وتولاها القلق ، وازعجها التفكير ، حتى رات فى النهاية انها لا يجب أن تظل ساكنة صامتة .. يجب أن تنقذه أو تنذره على الأقل وانتهزت الفرصة فى ليلة كان يبيتها فى قصر بالاموار وقد خلف مسكنه الذى اتخذه فى البيت الذى أنشأ فيه مكتبه فى رامسى ـ ليزور والده .. وحارت جانيت كيف تبداه .. كانت تخشى ان تمس كلمة منها احساسه المرهف .. ولكنها ما لبثت أن استمدت من حبها له شجاعة كى تفاتحه .. وفى صوت مرتجف خافت راحت تحدثه عن الأقاويل التى يشيعها عنه أناس السوء فى المدينة . وارتاحت اذ طمأنها الى انه ليس بالشخص الذى يأبه لمثل هذه الاقاويل .

www.liilas.com

— اننى لا اشك لحظة .. ولكن اللطف الذى تقابل به بنات الجزيرة يطمعهن فى المزيد .. اننى امرأة وقد كنت يوما شابة مثلهم اعيش فى الاحلام اذا ما ابتسم لى شاب .

— اطمئنى ياجانيت .. اننى لم اتسبب قط فى ضرر لاى فتاة .. لا ولن اقدم على شيء من هذا القبيل ما حييت .

— لطالما وثقت فيك ياعزيزى .. احذر هؤلاء الفتيات تصور ضجة الحاسدين لو حدث منك شيء .. انهم يعملون على افساد حياتك والوقوف دون بلوغك المجد تصور اباك الكهل .. اى آلام يعانيها لو ..

— قلت اطمئنى يا جانيت .. اننى لم انقد للغواية يوما ولن يكون هذا ابدا . اننى اعدك !.

— ولكن للشباب نزواته .. والشاب مهما كان رجلا .. والفتاة مهما كانت امرأة .. كم أود لو أنك تخيرت لنفسك زوجة طيبة ايها العزيز .. ان القاضى سيغتبط ، فليس له فى الحياة سواك .

ولكنه لم يدعها تتم حديثها ، بل نهض من مكانه ، فاحاطها بذراعه . وظل برهة صامتا . ثم لم يلبث ان قال فى صوت هادىء :

— اننى لن اتزوج ابدا . وانت تعرفين السبب يا جانيت ولكننى مع ذلك لن أجلب العار لأبى ، أو أدنس اسمى والله يساعدنى .

الفصل الثامن
الخطيئة

لم يغب عن فطنة فيكتور ما رمت اليه جانيت من حديثها . كان يشعر ان قلبها الأموى قد احس بذلك الشعور الذى انتابه نحو بيسى كوليستر . ولكنه ما كان يدرى ان احدا قد عرف شيئا عن علاقته بها . وما كانت هذه

العلاقة بالشيء الذى يخجل له . بل كانت بريئة طاهرة نقية . ومع ذلك فقد فضل ان يتجنب الفتاة بعد هذه الليلة ..

وانقضت أيام على هذا الحديث انتظمت فى عقد الزمن اسابيع . ثم حدث ذات يوم — وكان الأول من اغسطس — ان كان فيكتور واليك يسيران قريبا من الميناء يرقبان جموع الوافدين الذين حملتهم السفينة التى وصلت من انجلترا فى ذلك اليوم .. وفجأة اشار جيل الى مركبة مارة عن كثب وصاح :

— فيكتور .. أليست هذه عربة الحاكم ؟ . انه فيها . ولكن .. من هذه السيدة التي بجانبه ؟ لعمرى ، انها ولابد ابنته .

ولكن ستول كان يذكر ذلك العقد الذى ارتبطت به .. ويذكر تحمسها للحركة النسوية . ويعتقد انها لن تتخلى عن الواجب الذى أخذته على عاتقها .. لذلك ماكان ليامل قط فى عودتها الى الجزيرة .

وكانت دوجلاس — حيث المرفأ الذى تجنح اليه السفن القادمة من انجلترا — فى شبه عيد . فقد كان ذلك اليوم بدء موسم السياحة فى الجزيرة . فانتشرت الأضواء فى الثغر فى المساء وقامت الاحتفالات للترحيب بالوافدين .

وقر راى الصديقين الشابين على قضاء سهرتهما فى الفندق الكبير . حيث اعلن عن حفلة راقصة . لذلك قصدا الى ساحة الفندق عندما ارخى الليل سدوله فاذا بها زاخرة حافلة . تموج بجموع لاعدد لها من الوافدين الأغراب من شباب الجزيرة .

وراح الشابان يتنقلان من مكان الى آخر ، وفجأة . وجد ستول نفسه أمام بيسى كوليستر . كانت قد ارتدت أبهى ما لديها من ثياب ، وتجملت غاية وسعها . حتى بدت فى أروع

www.liilas.com

مظهر . كانت قد أحست بانصراف ستول عنهـا ، وكانت طامعة فى أن تجتذبه اليها ، وتستولى على قلبه . فجاءت اليوم مع صديقة لها لتحضرا حفلة الفندق الكبير ، وهـى آملة أن تلتقى به .

***

كانت الليلة ليـلة بيسى ، فاما استولت على فؤاد ابن القاضى واما كانت هزيمتها محطمة لاعتدادها بجمالها وسحرها لذلك لم تتردد عن الشجار مع زوج أمها حين حاول أن يحول بينها وبين الرحيل الى دوجلاس ، فقد كانت تعرف أن العمل فى مزرعة بالدروما يقوم على كتفيها هى وان جميع الجيران كانوا يغبطون دان لوجودها لديه ، يتمنون لو أنهـا قبلت العمل لديهم . لذلك فانه حين يئس من منعها من الذهاب الى دوجلاس صاح :

ـ حسنا . اذهبى اذا شئت ، ولكن تذكرى أن الامر هنا أمرى أنا ، فاذا لم تعودى الى البيت حتى الحادية عشرة مساء؛ فسوف أغلق الباب الخارجى دونك .

ولم تتورع أن تصيح بدورها : افعل ما شئت . فهناك أبواب عديدة يتمنى أصحابها أن يفتحوها اذ طرقتها .

***

وعزفت الموسيقا تدعو الموجودين الى الرقص . فتنـاول فيكتور يد بيسى وراح يراقصها . بينمـا رقص جيـل مع صديقة بيسى ، ستوزى ، وتملكت فيكتور حمى من الرغبة والشوق . كان يريد بيسى لنفسه ويود لو انفرد بها بعيدا عن العالم لذلك ما أمسكت الموسيقا عن العزف بعد الشـوط الثالث ، حتى قاد الفتاة الى حديقة الفندق ، لم يتكلما كثيرا ولكنهما كانا من وقت لآخر يتبـادلان النظرات المفعمـة

بالعواطف الجياشة ، ومضيا يضربان فى أنحاء الحديقـة ، كانت تتنفس فى عنف ، وكان يشعر بدوار عذب ، وتهامسا فى لطف ؛ ثم مست يده ، فأجفلت وسرت فى جسـده قشعريرة ناعمة ، وتضاحكت فى ارتباك وتحولت تقف أمامه وقد انطبقت أجفانها ، وانفرجت شفتاها عن أسنانها اللؤلؤية ووجدا نفسيهما يتقاربان ، ثم .. تعانقا فى قبلة طويلة .

وفى اللحظة التالية ، دقت ساعة الكنيسة المجاورة عشر دقات فأجفلت بيسى ثم صاحت : يا لله . ! لن أسـتطيع اللحاق بقطار العاشرة كى أصل الى البيت قبل الحادية عشرة وانفلتت من أحضانه جارية ، دون أن تأبه بندائه .

ولكنها لم تلحق بالقطار ، واضطرت أن تنتظر القطـار الأخير الذى يبارح دوجلاس فى الساعة الحادية عشرة ، والذى احتل فيه فيكتور مجلسا فى الدرجة الاولى ، وهو لايدرى أن الفتاة المسكينة كانت تقبع فى ركن من عربة الدرجة الثالثة وهى ترتجف فرقا وفى أعماقها نذير يوحى بشر مستطير .

***

فى الساعة الحادية عشرة تماما ، أغلق دان بالدروما الباب الخارجى للبيت ، وعبثا توسلت اليه زوجه العجوز ، لم يكن ليرضخ أو يلين ، انه ليعتقد أن الفتاة ما ذهبت الى دوجلاس الا لتلقى خليلها ، ذلك الشـاب ابن رئيس النواب ، الذى كان زميلها فى الفضيحة التى ثارت منذ أعوام .

وظلت مسز كوليستر يقظى طيلة الليل ، وأخيرا سمعت صفير القطار وهو يفد ، وهمت أن تهبط من فراشها فتتسلل الى المطبخ وتفتح الباب الخلفى للفتاة ، ولكن الرجل أحس بها فحال بينها وبين ذلك .

وأخيرا سمع طرقات بيسى على البـاب فقفز من الفراش وفتح النافذة ، فأطل خلال الظلال يسأل من الطارق .

www.liilas.com

وأجابت بيسى : أنا ·· طبعا !
وانفجر فى ضحكة قاسية خبيثة وصاح :
ـ ابحثى لك عن مرقد حيث التقيت بفتاك ·
ثم أغلق النافذة وآوى الى الفراش ·· وانصتت الام فى أسى الى خطوات بيسى وهى تتباعد متثاقلة ·· ثم انبعث غطيط دان ، فاطمأنت الى نومه ، وسحبت ساقها المتصلبة الاعصاب ، واعتمدت على عصاها فى حذر حتى هبطت الى المطبخ ، ففتحت باب البيت الخلفى وصاحت هامسة :
ـ بيسى ! ·· بيسى ! ··
ولكنها لم تتلق جوابا ، فتركت الباب مفتوحا ، وجلست على مقعد مهشم ، تكافح الشجون ، وتحاول التغلب على الشقاء الذى راح يزحف الى قلبها ·

* * *

كانت بيسى حانقة ساخطة حين عادت الى البيت فوجدت الباب مغلقا ·· فلما صاح فيها دان بعبارته القاسية ، ازدادت نيران الغضب فى صدرها استعارا ولم تفكر فى التوسل اليه ، بل تحولت الى الطريق لا تلوى على شىء ·· كانت قد احتاطت للامر وعزمت على المبيت لدى صديقتها سوزى ، ثم تعرض على أصحاب المزارع فى اليوم التالى أن تعمل لدى أحدهم ، ولن يرفضها أحد ، فقد عرفت بمهارتها وجدها ·· وكانت قد افترقت عن سوزى فى المرقص ، ثم لم تجد وقتا للبحث عنها عندما أزمعت الرحيل ·· ولكنها قدرت أن صديقتها ولا بد قد عادت الى بيتها ، فيممت شطره ·· بيد أنها عندما وصلت ، سمعت كلمات دان تتردد فى أذنيها : « ابحثى لك عن مرقد حيث التقيت بفتاك ! » وطرأت فى ذهنها فكرة غريبة ·· يا لله ! حقا لن ينقذها من عنت دان وقسوته واضطهاده غير ·· مستر ستول وهو

ولا بد قد عاد الى رامسى فى هذه الأثناء · فلو أنها سعت للقائه لوجد لها مخرجا من الموقف ·· ان رامسى ليست بالبعيدة ففى وسعها أن تصل اليها بعد ثلاثة أرباع الساعة سيرا على القدم ·
كانت الفكرة جنونية · واحست بدماء الحياء تلهب وجنتيها · ولكنها كانت تسير فى الطريق فى غير وعى · وكأنها تسارع قبل أن تصدها أفكارها · وكانت تعرف أن ستول يقطن فى ميدان « البوستة القديمة » · فقررت أن تترقبه فى الميدان · ولكن ·· ماذا يكون من أمرها لو أنه كان قد فضل المبيت فى قصر أبيه ؟ وفارقتها شجاعتها · وانحسرت أمواج التحدى عن قلبها · ورأت نفسها لاول مرة تعسة ، طريدة ، شريدة ·· وحيدة فى منتصف الليل المظلم الساكن ·
وقست عليها خواطرها اذ وصلت الى الميدان · وتبادرت الدموع الى عينيها فى الوقت الذى شرعت السماء ترسل فيه مطرا رذاذا · وكأنما شاءت أن تشاطرها بكاءها · ولكنها ما لبثت أن سمعت خطوات خلفها ·· آه لو كان هو ! · وخفق قلبها · وهفت أعصابها ·· واقترب القادم منها ·· وفجأة سمعته يصيح :

ـ بيسى ! · يا لله ·· ماذا تفعلين هنا ؟

وكان هو ، فراحت تقص عليه كل شىء ؛ ووقف برهة حائرا ، وقد انساب من فمه سيل من اللعنات على رأس ذلك العجوز القاسى الذى تصلب قلبه حتى انه لم يتردد فى طردها فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ·
وأشرق وجهه بعد قليل · ماذا لو قادها الى بيت مسز كايل العجوز التى تقوم بتنظيف بيته ؟ · ولكن البيت فى

www.liilas.com

الطرف الجنوبى ، وهو بعيد ٠٠ وقد تنزعج اذ تراهما معا يطرقان بابها فى مثل هذه الساعة ٠ ثم ان المطر يزداد انهمارا ، والسماء تتلبد بالسحب منذرة باقتراب العاصفة

وفى حيرة وتردد فكر فى أن يدعها تبيت فى مسكنه ، وليقضى هو ليلته فى أحد الفنادق ، ولكن ٠٠ من من أصحاب الفنادق يكون مستيقظا فى هذا الوقت ؟ ثم ان العاصفة تسرع فى الاقتراب ٠ اذن ، فلينتظر معها فى بيته حتى تسكن ثورة الطبيعة ٠ ثم يفكر بعد ذلك فى مخرج ٠

وقادها الى بيته وانتظر ، ولكن المطر زاد انهمارا ، وراحت الرعود تقصف وانقضت العاصفة هوجاء عاتية ٠ يا للآلهة ! ٠ ترى هل تآمرت قوى الطبيعه على أن تبقى كليهما فى المسكن ؟ ٠

وقال : بيسى ٠ أخشى ألا تسنح الفرصة كى أخرج ٠ وقر رأيه على أن تشغل هى حجرة نومه ، وقادها اليها ٠ ثم أضاء لها المصباح القائم الى جوار الفراش ٠٠ واذ هم أن يغادر الحجرة ٠ حانت منه التفاتة نحوها ٠ فاذا هى واقفة جامدة ٠٠ وقد تهدج صدرها ، وانبعث من عينيها ألسنة من اللهب وضاءة ٠٠ وأحس بالدنيا تميد تحت قدميه ، وكأنه يرى وجه امرأة للمرة الاولى ٠٠ وتولى عنه كل شعور الا شعور واحد كان يقوده دون وعى ، وفى اللحظة التالية كانت الفتاة بين ذراعيه ٠ وتشد ذراعيها هى الاخرى حوله ٠

* * *

استيقظ ستول فى الصباح على حلم مزعج رهيب ٠ لم يكن قد عرف للنوم طعما ، قبل أن تتسلل من نافذة الحجرة تباشير الفجر ، ومع ذلك فما كادت أجفانه تنطبق ، حتى

واتاه هذا الحلم فبدد عن عينيه النعاس ٠

والتفت فاذا بيسى راقدة الى جواره ٠ سادرة فى نوم هادىء عميق ٠ فتأملها ٠٠ وراعه أنها لم تكن بالرشاقة والجمال اللذين تبدت فيهما فى الليلة الماضية ، وأحس انه يكاد يختنق ٠ فقز من فراشه ، وبعد لحظات اندفع الى الطريق كمن يبغى الفرار ٠٠

كانت نفسه تهفو الى الوحدة ٠٠ وود لو يخلف المدينة ٠ وحاول أن يسأل نفسه عما حدث ولكن ذهنه كان مرتبكا يرزح تحت وطأة الأفكار المختلطة المتدفقة فى اندفاع واستمرار ٠

ياالله ٠٠ كيف بلغت به الحماقة أن يدعو فتاة الى مسكنه مهما كانت هذه الفتاة ٠٠ كيف فعل ذلك وهو الذى أخذ على نفسه منذ أيام وعدا ألا يسمح لسلطان الغواية أن يطويه تحت ارادته ، وتولاه شعور من الخجل والعار ٠ لقد عاش حتى الامس طاهرا نقيا أما الآن ٠٠

وتذكر فجأة أن مسز كايل لن تلبث وقد أسفر الصباح أن تذهب الى بيته لتقوم بتنظيفه فماذا يحدث لو وجدت الفتاة ٠٠ وسرت فى جسده قشعريرة باردة ٠٠ يا للحقارة ٠٠ وتراءى له دان بالدروما يكيل المبررات لطرده الفتاة فى منتصف الليل ، ثم يهيل على رأسه الوحل والتراب ٠٠ ولو أن المجتمع كان كبيرا فى الجزيرة ، لأمكن التستر ٠٠ ولكن كل شخص هنا يعرف الآخر فأى فضيحة سيعرفها الناس اذ ذاك ٠٠ وأظلمت الدنيا فى وجهه اذ بلغ تفكيره هذا الحد ٠٠ ماذا يكون موقفه من أبيه ٠٠ وكيف يتلقى القاضى الكهل هذه الصدمة ٠ ؟

وطغى الذعر على نفسه ٠٠ وكره الساعة التى قابل فيها

www.liilas.com

الفتاة .. بل وكره الفتاة نفسها .. ولكن ، ما ذنب المسكينة؟ لقد كانت ضحية لقسوة زوج أمها .. وكانت من قبل طيبة لم يعرف عنها أحد ما يشينها رغم الاقاويل ، ورغم ما حاولوا الصاقه بها منذ سنوات .. ثم .. هل يتخلى عنها بعد ان فعل بها ما فعل . ؟ كلا .. لن يكون هو ذلك الجبان .. وفكر فى أن يدفع اليها بقدر من المال يصلح خطأه ، ويساعدها على المضى فى الحياة ، ولكنه ما لبث أن نحى عن ذهنه هذه الفكرة .. انها قسوة .. بل ووحشية !

وهتف به ضميره : انك المسئول ! .

كان حتى هذه اللحظة يرى أن ما فعله جـــريمة تقتضى منه أن يحمى الفتاة من عواقبها .. ولكن مستقبلها ما لبث أن تراءى له كشبح قاتم رهيب .. ان عليه أن يتزوجها ، فليس من علاج لجريمته غير هذا . وراعه الامر . كيف يمكنه وهو ابن قاضى القضاة ، وسليل أعرق أسرات الجزيرة ، أن يتزوج من فتاة وضيعة الاصل مثلها ؟ .. ولكن ، أما كان فى وسعها لولاه أن تتزوج من شاب من طبقتها ، وتمضى فى الحياة مرفوعة الرأس ؟

ورأى اذ ذاك أن ما ارتكب لم يكن جريمة ، بل كان اثما .. خطيئة .

وطلعت الشمس على المدينة اذ ذاك . وهتف فى نفسه : لقد عرفت ، لقد عرفت

لطالما أخبرته جانيت أن الحق فى أسرته كان دائما مبدأ مقدسا ، ولقد ظل آل بالاموار طيلة الحقب والاجيال لا تشوب شرفهم شائبة ، ولا تخالط اسمهم نقيصة .

وهتفت نفسه ثانية : سوف أتزوج الفتاة .

وأزعجه هذا العزم . أيجعل من هذه الحقيرة الجاهلة ،

سيدة لقصر بالاموار ، ووريثة لمركز أمه ؟ .. ولكن . يجب أن يظل مع الحق .. يجب أن يصلح خطأه ، بيد أن قلبه وخزه فى اللحظة التالية ليذكره بحبه لفينيلا . ومادت الارض به ، وأحس بفؤاده يتمزق ، يا للحيرة .. ويا للألم ! هل ظـل ينتظر فينيلا طيلة هذه الأعوام ، كى ينتهى الى هذه النهاية .. وأحس بالدموع تترقرق فى عينيه لأول مرة منذ طفولته ، ولكن الشعور بالواجب والحق ما لبث أن غمر نفسه ، فاذا بالدموع تجف من تلقاء نفسها ، واذا بالارتياح يداخل قلبه .

واذ وصل الى البيت ، تذكر أنه رأى فى صندوق الخطابات عندما دخل البيت مع بيسى رســـــالة .. فتنـــاولها من الصندوق ، وكان الخط الذى حمله غلافها خط جانيت ، وأسرع يتلوها فما كاد يأتى على آخرها ، حتى ترنح كالثمل ، وأمسك بحافة السلم حتى لا يهوى . فقد جاء فى الرسالة : « أكتب اليك هذه الكلمة فى عجلة لأنبئك أيها العزيز أن مس جرين أخبرتنى أن فينيلا ستصل الى الجزيرة فى الساعة الثامنة من مساء اليوم بعد أن تخلصت من تعاقدها مع الهيئة النسوية . أظنك مسارعا الى استقبالها ، وما أراها الا ستسر للقائك » .

اذن ، فقد صدق جيل الأمس حين حدس — عندما رأيا عربة الحاكم — ان فينيلا كانت السيدة التى جلست بداخلها .

www.liilas.com

القسم الثانى

الفصل الاول
عودة فينيلا

كان القدر يهزأ بستول ، ولكنه قرر المضى فيما اعتزم .. فما هى الا ساعة حتى كان قد دفع بيسى الى عناية مسز كايل ريثما يبحث عن خير طريقة لتعليم الفتاة ، فقد كان مقبلا ـ كما ذكر للخادم العجوز ـ على الزواج منها .

وبعد يومين ، اتصل ستول بصديقه جيل ، فقص عليه انه وجد الفتاة طريدة شريدة فى منتصف الليل ، فأشفق عليها وأخذ على عاتقه أن يحميها وأن يعلمها على نفقته .. ولكنه لم يخبره عن خطيئته ، بل ذكر انه ما لبث أن تبين فى نفسه احساسا طاغيا نحو الفتاة ، يدفعه الى الزواج منها .

وصاح جيل : ولكن .. بيسى ؟ أتعنى هذا ؟ ألا تذكر ما ثار حول سمعتها فى الحادث الذى اشتركت فيه منذ ..

ولكن ستول لم يدعه يتم الحديث .. بل سأله عما يراه فى صدد تعليمها وتثقيفها .

كان جيل يعرف شقيقتين تقيمان فى « ديربى هافن » وتعيشان من القاء الدروس الخاصة على بنات الاسرات . فنصح ستول أن يدع الفتاة فى رعايتهما ، وتطوع ـ اذا شاء ستول أن يؤخر علم والده بما هو مقدم عليه ـ أن يكون حلقة الاتصال بين صديقه والفتاة .

واصبح على ستول عبء الانفاق على الفتاة . فما تردد فى أن يشمر ساعديه للعمل ، وما أحجم عن أن يقبل القضايا التى تعرض عليه أياكانت ومهما صغرت قيمتها ، وكان نشاطه فذا ، وتوفيقه عجيبا . حتى أن القوم ما لبثوا بعد قليل أن وضعوا فيه كل ثقتهم ، وأصبح كل صاحب قضية يرجو الفوز ، يهرع الى مكتب « ستول » .

لم ير فينيلا خلال هذه المدة . لا ولم يسع الى لقائها . فقد صمم أن يبتعد عن طريقها . مادام قد وطن العزم على أن يصلح خطأه ازاء بيسى . بيد أنه تلقى ذات يوم دعوة من الحاكم الى حفل شاء أن يقيمه ابتهاجا بعودة ابنته . فما توانى عن الاعتذار بانشغاله فى عمل هام . على أن الوقت لم يطل به قبل أن يتسلم دعوة ثانية ، وكانت هذه المرة من فينيلا نفسها اذ سعت الى عقد اجتماع لتكوين « جمعية لحماية المرأة » . ولكنه اعتذر أيضا هذه المرة ثم زار والده يوما فى قصر بالاموار . فاذا بهذا يقول له :

ـ من الغريب يا فيكتور ان هذه هى الفتاة التى تذكرنى بأمك كلما لاقيتها ، ولو أننى أغمضت عينى وهى تتكلم .. لآمنت اننى استمع الى أمك .

وكان يقصد فينيلا بحديثه . كل شىء يدفعه اليها على الرغم منه .. حتى لقد خيل اليه انه يكره ، حتى مجرد ذكر اسمها أمامه ، ولكنه كان لا يتمالك اذا خلا الى نفسه أحيانا أن يتمنى لو كان فى وسعه أن يبيع الدنيا وما فيها مقابل نظرة يلقيها على وجهها الفاتن ..

وزاره جيل يوما فطمأنه الى أن الفتاة تتقدم فى دراستها تقدما مدهشا ، وانه يزورها أحيانا ويتنزه معها كى يخفف عنها .

www.liilas.com

ـ ولكن ·· يبدو اننا سنضطر الى التزام الحذر بعد ذلك·
فتساءل ستول فى دهشة : كيف ؟
ـ ان دان بالدروما يشك فى اننى اختطفت الفتاة منـه ، ويرسل ورائى الاتباع يرقبوننى ·
واجفل ستول ·· وخجل من نفسه ، كيف يبلغ به الجبن أن يدع الشبهات تتجه نحو صديقه البرىء ·
ولكن ، ما كاد جيل يغادره ، حتى وفدت الى مكتبه زائرة · وكانت فينيلا ستانلى بعينها ·
صاحت فينيلا : أما وقد أبيت أن تأتى للقائى · فقـد سعيت بنفسى الى هذا اللقاء ·
ووقف ستول واجما يتأملها ، كانت أجمل من وقع عليهن بصره من نساء العالم ·
على أن فينيلا لم تأت لمجرد الزيارة فقد جاءت تعرض عليه أول قضية تضطلع به جمعيتها ، لحماية امرأة من قسوة القانون اذ قتلت هذه الزوجة ـ وهى من كاسلتون ـ زوجها ، وبعد التحقيق أحيلت الى محكمة الجنايات العليا ، وما كان ثمة شك فى ادانتها ، ولكن الجمعية رأت أن توكل عن الزوجة محاميا ممن يعطفون على النساء ، كى يطرح أمام المحكمة الظـروف القاسية التى أحاطت بالجريمة ·

وانصاع ستول لرغبتها ، ووعد أن يقرأ ملفات القضية التى حملتها اليه ، وأن يطلب مقابلة السجينة،عساه مستطيعا حملها على الكلام ، بعد ما تجلى من اصرارها على الصمت ·
وعصفت الشجون بقلب ستول عقب انصراف فينيلا ·· يا لله ! أى قسوة تبدو له فى تصاريف القدر ! أى عقاب قدر له بالاضطلاع بهذه القضية · ! أى سخرية فى أن يدافع عن امرأة ·· وأن تكون فينيلا هى التى تنيط به هذا الدفاع · ! وقلب صفحات ملفات القضية · فراعه أن يرى ان قصة المرأة

المدانة ·· لم تعد أن تكون صورة لقصة بيسى لو انه تخلى عنها وهجرها ! كان من الطبيعى أن يتألم·· وكان من واجبه أن يتحمل الألم ·· ولكن وجه فينيلا الذى راح يطارده كان يحطم مقاومته واحتماله ·· فأسرع يكتب الى بيسى راجيا أن ترسل اليه بصورة لها ·· تقع عليها عيناه كلما لاح له وجـه فينيلا فى الخيال ·

* * *

انهمك ستول فى دراسة القضية ·· وتردد مرارا على سجن « كاسل روشن » لمقابلة المتهمة ·· وخيل اليه ان هذا الاهتمام منه كان ينسيه شجونه ·· ولكنه ما لبث أن أحس بالقدر يأبى لجروح قلبه اندمالا كلما أوشكت ·· فقد كانت تأتيه الانباء عن كثرة تردد فينيلا على قصر بالاموار لزيارة أبيه ·· مما اضطـره الى التوانى عن زيارة القصر ·· حتى لقيه الدكتور كلوكاس ذات يوم فاذا به يقول له : اننى عائد لتوى من بالاموار ·· وأظن أنه يحسن بك أن تزور أباك ·· لا تقلق فليس ثمة خطر ·· ولكنك تعرف الشيخوخة و ···

وفى عصر اليوم التالى ·· قصد ستول الى بالاموار ·· ولكنه ما كاد يصل حتى شاهد جمعا فى الحقل الخلفى للقصر · وخفق قلبه فجد السير نحوه .. فما أشرف عليه حتى وجد أباه والحاكم وفينيلا يتوسطون المزارعين الذين يعملون فى أراضى بالاموار ·· كان اليوم بدء موسم الحصاد ·· وقد جرت تقاليد بالاموار على الاحتفال به ·· وكانت فينيلا حين وصل فيكتور ممسكة بمنجل لتقطع به أول سنبلة من محصول القمح الجديد ·· ايذانا بافتتاح الموسم ··

وصاحت فينيلا اذ رأته ·· ضاحكة : ها قد جاء السيد أخيرا ··

www.liilas.com

وأبرقت عينا القاضى بابتسامة وقال : الن تبيت ليلتك هنا يا فيكتور ؟

وكان عليه أن يجيب رغبة الأب الكهل ، على الرغم منه ، يا للاقدار ، كلما سعى للفرار من لقاء فينيلا ، جمعته هـــذه الاقدار بها .

وأقام القاضى حفلة عشاء فى المساء ، للحاكم وابنته ، وفيكتور ، والطبيب كلوكاس . وتبدت فينيلا فى الحفلة مشرقة رائعة الجمال . قط لم ير فيكتور ملاحتها أو سحرها فى امرأة من قبل ، وود المسكين لو يفر من البيت ، بل من الجـــزيرة كلها ، كان قلبه يتمزق حسرة وكان يقاوم فى جهد شـــاق ، رغبة ملحة فى البكاء . واذ طغت عليه آلامه أعلن أنه قـــرر العودة الى رامسى فى نفس المساء ، وبدا الأسى على وجه والده ، وتجلى الألم على وجه فينيلا ، ولكنه اعتذر باهتمامه بقضـــية الزوجة القاتلة .

وصحبه الدكتور كلوكاس فى عربتـــه ، فلما كانا فى منتصف الطريق عرج الطبيب فى حديثه على فينيلا قائلا : « لقد رأيت كثيرا من النساء فى شبـــابى يا مستر ستول ، ولكننى قط لم أر فيهن من تضارعها روعة وفتنة » ترى هـــل أجمع الكل على اغرائه ؟ ولكنه ارتاح اذ وصل الى البيت فوجد خطابا من بيسى تصحبه صورتها ، فبادر الى وضعها فى حجرة نومه ليكون وجهها آخر وجه يراه قبل نومه ، وأول ما يطالعه عند استيقاظه ، ولكن هذا لم يستطع أن يمحو من أحلامه وجها آخر حبيبا . وجه فينيلا .

الفصل الثانى
موت القاضى

كانت عادة القاضى ستول منذ ودع منصبه ، أن يحرص على حضور اشهر المحاكمات فى محكمة الجنايات العليا ، ولكن الكهولة والتعب ما لبثا أن قعدا به عن الحضور الا ما ندر فى الاعوام الاخيرة ، بيد أنه ما كاد يعرف موعد القضية الاولى التى يترافع فيها فيكتور أمام هذه المحكمة حتى صمم على حضورها، رغم ما نصحه به الطبيب من ابتعاد عن الارهاق ، أو الانفعال.

ووقف وكيل النيابة يدلى بقصة المتهمة ويطالب بأقصى عقوبة لها ، ردعا لمثيلاتها ، كانت المسكينة يتيمةمنذ حداثتها، ضحية لذئاب البشر ، حتى قادها الحظ الى الزواج من القتيل، فاذا بالحياة الهادئة التى كانت ترجوها ، تسفر عن شقاق دائم ، وعن اسراف زوجها فى الشراب ومحاولاته قتلهـــا ، وأخيرا ، وفى احدى معاركهما طعنته فقضت عليـــه وضبطت متلبسة بالجريمة .

وتحول فيكتور فى براعة يناقش الشـــهود ، فاذا بهم يقررون أن القتيل كان يقبض بيده على قضيب من الحديد ، وان ثمة جراحا وجدت بجسم المتهمة ، بينما لا يوجد بجســـم القتيل سوى أثر الطعنة ، وهذا ينبىء انه كان يحاول الاعتداء عليها ، وانها قتلته دفاعا عن نفسها .

وبدا الاعجاب فى عينى القاضى ستول . وحبس النظارة انفاسهم دهشة وانتظارا . وجلست فينيلاوراء فيكتورترمقه بنظرات زاخرة بشتى العواطف . لم يعتمد فى دفاعه على شهود نفى ، ولم يعرف عن ملابسات الجريمة أكثر مما عرفه المحلفون،

www.liilas.com

اذ أنه المتهمة الافضاء اليه بشيء وليس من انكار انها قتلت زوجها ، وهى لهذا مجرمة ، ولكن هل كان هذا القتـــل جريمة ؟

وتدفق فى طلاقة وقوة منطق لم تدو بين جدران المحكمة اقوال حوتها من قبل .. لقد كانت المسكينة تظن انها ستسعد مع زوجها بعد مالاقته من شقاوة .. ولكنه أهانها وأذلها وهبط بها الى الحضيض .. لقد قتلته ، ولكن .. اذا كان جسمها مثخنا بالجروح ، وجسمه لا يحمل غير الطعنة التى أماتته ، أفليس هذا أوضح دليل على أنها كانت تدافع عن نفسها .. واختتم دفاعه مذكرا المحلفـــين بقول المسيح : « من كان منكم بـــلا خطيئة ، فليرم بحجر . »

وانتهى من مرافعته فظل القوم مشدوهين ولم يفطنوا الا بعد دقيقة كاملة .. ولم يحتج المحلفون الى مداولة ، بل أجمعوا على أن المتهمة « غير مدانة » . واذ ذاك نطق القاضى بالبراءة . وسرت تنهدات الاعجاب ، وزفرات الارتيـــاح .. وتهامس الحضور عما ينتظر فيكتور من فوز ومجد .. أما هو فقد بدا شاحب الوجه ، ظاهر الاعياء والارهاق .. ولحقت به فينيلا قبل أن يغادر المحكمة ، صائحة فى ضحكة مرتجفة .

ـ ما كان أروعك .. كيف قرأت قلب هذه المرأة . ؟ سأضطر الى أن أخشاك فى المستقبل اذا كنت أكتم فى قلبى سرا .

وأقبل القاضى ستول ووجهه يطفح بالبشر والفخر ، فشد على يد فيكتور ، ولكنه لم ينظر الى وجهه ، ثم تحول مواصلا سيره ، وتبعته فينيلا فى اكبار واشفاق .

والتقى فيكتور بعد ذلك بوكيل النيابة فصاح هذا : لقد قلت لأبيك منذ لحظة اننى لم أسمع من قبل دفاعا مثل دفاعك

وتكأكأ القوم على فيكتور ، وانهالت تهانئهم .. وفجأة أقبل الحاكم فجذبه من ذراعه قائلا : تعال ، والا قتلوك بتزاحمهم حولك .

وكانت عربة الحاكم فى انتظاره فى الخارج ، وقد سبقته اليها فينيلا بعد أن ودعت القاضى ستول .. فلما همت العربة بالمسير ، وصافح فيكتور الحاكم مودعا ، صاحت فينيلا :

ـ الآن قد خططت مستقبلك بنفسك فأنت منذ اليوم نصير النساء المظلومات اللاتى لا عون لهن .

وكان مرهقا عندما وصل الى بيته الخاص فى رامسى ، ولكنه كان سعيدا اذ شعر بالطموح يستيقظ فى اعماقه أثر كلمات فينيلا .. بيد انه ما كاد يدخل البيت ، حتى رأى صورة بيسى كوليستر فانحسرت أمواج الغبطة والامل ، عن شواطىء قلبه .

***

كان القاضى طوال الطـــريق ـ فى عودته الى البيت ـ مبتهجا . فراح يحيى من يصادفه فى رقة ولطف . فلما جلس الى المائدة أصر على أن تشاطره جانيت الطعام ، وهو يهز رأسه بين الفينة والفينة قائلا : من يقول أننى لم أكن على ثقة من انه سيجعلنا نفخر به يوما ما .

على أن جانيت كانت كلما تقدم زحف الليل على القصر ، تزداد قلقا على القاضى من انفعاله الطاغى ، ولكنها عندما آوت الى مخدعها كانت مطمئنة الى أنه لجأ الى المكتبة . فظل يسجل فى المذكرات ذات الغلاف الجلدى ، حتى اذا انتهى تركها للمرة الاولى عـــلى المكتب دون أن يغلق عليها الدرج . ثم صعد الى حجرته ، وتوقف ثلاثا مرات وهو يصعد السلم ـ تعبا ـ حتى اذا بلغ حجرته تحول عن بابها الى الى آخر الردهة

www.liilas.com

حيث حجرة فيكتور . فوقف فى مدخلها واجال نظرة فى انحائها . ثم ابتسم ، وعاد الى حجرته . فأرخى الستائر على النوافذ . ثم ظل يتطلع الى الصور التى تزين الجدران، والتى تمثل فيكتور فى مراحل طفولته .

وكانت هذه آخر حركات بندول حيـــاته ، ولكنه ظل يبتسم . ثم أغلق عينيه ، وأرسل زفرة طويلة كشخص ظل يعمل طيلة اليوم ، حتى رأى عمله ينتهى .

كان السكون فى الخارج غريبا . صمت غير معتاد أجمعت عناصر الطبيعة على التزامه واحترامه .

وقبيل الفجر .. اهتزت الاغصان ، وسرت نسمة بين الاعشاب . ترى أكانت الحياة تدب فى اليوم الوليد .. أم كانت شبحا خفيا يخطو مبتعدا عن العالم ؟ . وسواء أكانت هذه أم تلك . فان القاضى كان قد ... مات ! .

***

ارسلت جانيت النفى الى فيكتور فأقبل مسرعا وقد اذهله هول النكبة وما درى المسكين شيئا من عواطفه . فقد كان يتخبط بينها كغريق لا يهمه أن يتعرف ماهية الامواج التى تحمله الى الاعماق .. حتى اذا أقبل الليل جلس فى المكتبة على نفس المقعد الذى كان يجلس عليه أبوه فى الليلة الماضية ، ورأى أمامه المذكـرات ذات الغلاف الجلدى ، التى أســماها القاضى « يوميات ايزوبيل » ، فمضى يطالع ما جاء فيها ، كانت كلهـا مناجاة لزوجه الراحلة ، يحدثها عن خطوات فيكتور فى الحياة .. وارتجف فيكتور اذ وقعت عيناه على فقرة كتبها أبوه عقب افتتاحه مكتبه للمحاماة فى رامسى:

« لقد مضت ستة أشهر ، ولكنه لم يأت هنا الا مرتين .. ولكن ليس لى أن أشكو فالطبيعة تنظر الى الامام لا الى الخلف

.. لن يحب ابن أباه كما يحب الاب ابنه .. هذا ناموس الحياة يا ايزوبيل ، ومن واجب الاباء أن يتناسوا أنفسهم من أجـل الأبناء . . »

آه ! لو انه عرف أن أباه كان يتألم لبعاده ! ولكنه مالبث أن أحس برجفة أخرى تهز كيانه ، فقد كان الحديث بعد ذلك يدور عن فينيلا وأمل القاضى فى أن تكون زوجة لابنه .

أبدا لم أر زوجين أكثر تآنفا وانسجاما منهما يا ايزوبيل .. أن اثرها عليه عجيب ، فلم يمر على عودتها من لندن شهر، ولكنه بدا خلال هذا الشهر رجلا آخر ، فليجعل الله منهمـا زوجين سعدين » .

ثم قرأ ما كتبه القاضى عقب عودته من المحكمة ، ليلة وفاته : « وهكذا حانت النهاية يا ايزوبيل .. فى وسع ابنك الآن أن يمضى فى الحياة دون حاجة الى .. وما دامت هـــذه المرأة الجميلة بجواره فسوف يرقى سلم المجد ، سيتزوجان ويخلدان تقاليد آل بالامواز .. هذه أحب أمانى التى أرجو أن تتحقق »

وبددت سكون الليل الساجى دقات الساعة تعلن الثالثة صباحا فنهض فيكتور الى مخدعه .. ولكنه عندما مر بباب حجرة أبيه ، ركع فى المدخل وهمس :

« سامحنى ! . سامحنى ! . سامحنى ! . »

وأحاطته هالة من نور خفى لحظة .. لقد اطمأنت روح أبيه الى أنه لن يحيد عن الحق .

***

فى اليوم التالى .. دفن القاضى بين صيحات الأسى واللوعة من الجموع الزاخرة التى أقبلت من أنحاء الجزيرة تودعه الوداع الاخير .. حتى اذا انفض القوم . وجد فيكتور نفسه جامدا

www.liilas.com

الى جوار القبر لا يكاد يقوى على مفارقته ، ولكنه ما لبث أن أحس بيد تمس ذراعه ، وبصوت مرتجف يقول :

ـ انه هنا أكثر راحة ·· لم يعد بعيدا عن شريكة حياته السابقة ·

وكانت فينيلا .. وأحس بشيء لا قبل له بمقاومته ، بباعث طاغ جبار ، دفعه الى أن يحيطها بذراعيه .. وأن يقبلها !.

الفصـــل الثالث

بين الحب والواجب

لم يبق فى رفقة فيكتور بعد انتهاء كل شيء ، غير صديقه « اليك جيل » الذى قضى اليوم بجواره ·· فلما ازمع الرحيل، وخرج فيكتور يشيعه حتى الباب ، سأله فجأة :

ـ ماذا لديك من أخبار بيسى ؟

ـ انها بخير ·· ولكننى أخشى ·· فقد حدث ان رآنا معا بالامس ، قيصر كولتروغ ، والد ذلك الوغد ، الذى اشتجر معى عندما كنت فى مدرسة الملك ويليام ·· وهو صديق حميم لدان بالدروما ، وهذا من مستأجرى أراضى والدى ·· ولكن لا يجب أن نأبه لهذا !

وتساءل جيل فى نفسه وهو منصرف : ترى أحقا يعنى بأمر الفتاة ، أم هو مجرد شعور منه بالواجب ؟

وقال فيكتور لنفسه وهو يكر عائدا للمنزل : لا يجب أن أجعل اليك ستارا أختفى وراءه ·· ولكنه فى اللحظة التـالية كان يفكر فى فينيلا وفى نفسه خليط من الخجل والفرح ·

وفى الصباح التالى ، فتحت وصية الراحل ، فاذا بكل أمواله ـ ماعدا ما أوصى به للخدم ـ وأموال زوجه قد انتقلت الى ابنه ·

ثم انقضى يومان عكف فيهما على تفحص شئونه وموقفه الجديد ، حتى اذا كان اليوم الثالث ، عثر وهو يبحث فى أوراق أبيه على رسالة موجهة اليه ·· فلما فضها وجد خاتما مرصعا بالماس الثمين ، ومعه وريقة جاء فيها :

« هذا هو الخاتم الذى قدمته لامك عند الخطوبة ، وأرجو أن تعطيه بنفسك لفينيلا ستانلى »

ومكث ثلاثة أيام مترددا ، ولكنه فى اليوم الرابع وجد نفسه يذهب الى بيت الحاكم ·

وفرحت فينيلا بالخاتم فرحا لا يقدر ، وألقت على فيكتور نظرة خاطفة وهى تضعه فى أصبعها وقد تضرجت وجنتاها خجلا · وارتجف فيكتور اذ خطرت بباله فكرة · لماذا أراد أبوه أن يقدم الخاتم بنفسه اليها ؟ · لم يكن ثمة جواب غير ذلـك الذى تبدى فى عينى فينيلا ·· غير أن القاضى الراحل أمل أن يكون رابطة جديدة تقرب بين الشابين ! وود لو فر من البيت · فقد خال أن الفتاة تراه أحمق لانه لم يفهم مقصد أبيه · ولكنه فضل أن يكون أحمق · على أن يكون مخادعا .

ومر أســـبوع · ثم فكر فى أن يعترف لأهل بيسى بكل شيء ، مهما كانت العاقبة · ولكنه عندما قصد فى اليوم التالى الى مكتبه فى رامسى وجد دان بالدروما فى انتظاره ليستشيره فى أمر يحيره · لقد فرت ابنة زوجته من بيته باغراء شقى دنيء منذ أكثر من شهر · ولكنه توصل أخيرا الى أن يعرف انها فى كاسلتون ·

ـ ومن تظنه مغريها يا مستر كوليستر · ؟

ـ شخص من ألصق أصدقائك يا سيدى ·· مستر اليك جيل ·

فصاح دون وعى : كلا ·· كلا · !

www.liilas.com

ـ اذن فمن يكون غيره ، ألم يكن هو سبب الفضيحة التى لطخت شرفها منذ أعوام ٠ ؟ ثم ألم يكن يسعى للاتصال بها بعد ذلك ؟ ٠

ثم أفضى اليه انه جاء يرجوه أن يطلب الى صديقه أن يعيد للفتاة شرفها نقيا ، بأن يتزوج منها ٠٠

ـ ولكننى أفكر فى نفسى أيضا ، انه يعيش معها ، ولن اقنع أن أصمت الا اذا تزوجها ، انك وريث أعدل رجل عرفته الجزيرة ٠ فساعدنى على اقرار الحق ٠

احس فيكتور بالارض تميد به بعد انصراف الرجل ٠٠ يا للبشاعة ! ٠ هل يصبح هذا صهره اذا تزوج الفتاة ؟ ٠ أو هل يغدو فريسة لجشع هذا الانانى الحقير ؟

***

فى نفس اليوم أقبل الحاكم فأصر على أن يصحب معه فيكتور الى رحلة أعدها مع فينيلا فى يخت يطوف بثلاثتهم حول الجزيرة . فلقد لاحظ الحاكم وابنته ـ كما لاحظ غيرهم من أهل الجزيرة ـ ان الشاب يزداد نحولا وشحوبا يوما بعد يوم منذ مات أبوه ، فرأيا أن مثل هذه الرحلة كفيلة بالترويح عنه ٠

حاول فيكتور أن يتهرب أو يعتذر ، ولكن الحاكم أصر ٠٠

وأبحر اليخت ، حتى اذا كانت الساعة السابعة مساء ، رسا خارج ميـــاه « بيل » وجلس الحاكم فى حجرة الجلوس باليخت يطلع على صحف اليوم ، بينما صعد فيكتور وفينيلا الى سطح اليخت، يمتعان نفسيهما بفتنة الطبيعة وسحر الليل، ولم يشعرا بمرور الوقت ، حتى نبههما اليه الحاكم اذ صاح ينصحهما أن يأويا الى مخدعيهما ٠٠ فهبطا الى جوف اليخت ، وهمست فينيلا عند باب حجرتها ٠

ـ الا ترى انك تدعونى « مس ستانلى » واننى أدعوك

٠٠ بأى اسم شئت ؟ لقد كنا من قبل نتنادى باسمائنا المجردة فلم لا نعود الى عادتنا ؟

ـ أتودين ذلك ؟

فصمتت برهة ، ثم همست : فيكتور ! ٠

ـ فينيلا ! ٠

ـ عم مساء ٠٠

وكانت التحية كفيلة ناعمة ! ٠

لم يكد فيكتور يأوى الى مخدعه فى ذلك المساء ، حتى راح نهبا للالم ، كان مرتبطا بوعده ازاء الفتاة التى أرسلها الى « ديربى هافن » اذن فلايجب أن يتمادى فى الخضوع لاغراء فينيلا ، فليسارع فى زواجه من بيسى كوليستر ٠

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى أقلع اليخت الى بورت ايرين ، وهناك أمر الحاكم بالقاء المرساة الى المســاء ٠٠ واذ ذاك وجد فيكتور فرصة سانحة فاستأذن فى النزول الى الشاطىء لمهمة خاصة ، ووعد فينيلا ان يعود قبل الســاعة الرابعة ٠

***

بعد ساعة كان ستول فى ديربى هافن ، يسأل الآنستين براون أن تسمحا له بلقاء بيسى واجفلت هذه اذ رأته وصاحت فى دهشة : أهذا أنت ؟

وقبلت فى شىء من التردد أن تصحبه فى جولة حــول البيت الذى تقيم فيه ٠٠ وسار بجوارها حائرا مترددا لايدرى كيف يفاتحها فى الموضوع الذى جاء بصدده ٠٠ فى التعجيل بزواجهما ٠٠ وسارت بدورها صامتة ٠٠ وحاول ان يجاذبها الحديث ٠٠ فاذا به يستنكر اللهجة التى كانت تجيبه بها ٠٠

www.liilas.com

تلك اللهجة التى تعودتها بنـات الريف الجاهلات .. وأحس بالخجل .! وتصبب العرق على جبينه .. كيف خال أن بوسعه أن يرفع الى مستواه فتاة كهذه .؟ انها رغم كل شىء ستظل.. تلك القروية الجاهلة .! يالله .! أيجعل من مثلها ربة لقصر بالاموار .؟ ورأى فكرة الزواج منها تنزوى خجلا فى ركن من رأسه .!

وودعها حتى باب البيت .. ما أن تحول للانصراف اذ رأى احدى الاختين اللتين تعنيان بتثقيفها فوقف يسألها عنها فقالت : انها تتقدم تقدما مدهشا .. لقد كنت أعجب وأختى من احتفاظها بالشموع فى حجرة نومها .. حتى رأيناها يوما فى فراشها .. ساهرة على ضوء شمعة تستذكر دروسها .

وأحس ستول بلطمة قاسية .. وخيل اليه ان كل فكرة قاسية ضد الفتاة قد انجابت عن ذهنه .. أليس فى هـذا دليل على انهـا تضحى براحتها لتتقدم فى دروسـها كى ترضيه .؟

وفى خلال عودته مضى يفكر .. ماذا يحدث لو انه أساء اليها الآن.؟ أتقتل نفسها .؟ أم تقتلها الدنيا .؟ لا.. لايجب ان ينكث فى وعده .. أو يتراجع عن أداء واجبه .

ولكن .. ماذا يكون موقفه ازاء فينيلا .؟ هل يجب الا يكون بينهما شىء بعد هذا .. حتى ولا ابتسامة ان هذا يكون بمثابة نذير له بالموت .

وما ان وصل الى بورت ايرين . حتى كان قد صمم فى نفسه على أن يصارح فينيلا بكل شىء .!

الفصل الرابع

سر المرأة .. !

غير ان ستول لم يجد الفرصة كى يصارح فينيلا .. كانت الفتاة مرحة فى ذلك المساء .. اذ حملت أباها عـلى الموافقة على أن يقلع اليخت مع قافلة من السفن كانت خارجة الى الصيد ، وأصرت على ان تشترك بنفسها فى القاء الشباك وسحبها محملة بالاسماك . كان مرحها طاغيا عجيبا ، وكان مضطرا أن يجاريها على الرغم منه .

وانتصف الليل . فكفت عن الصيد ، وسارت الى جواره يذرعان سطح اليخت صـامتين وتساءل فى نفسه « أمن الضرورى أن أخبرها ؟ » ، وأحس كما لو فاض على ذهنـه سيل وانمحت هذه الفكرة من رأسه . أيوقع صك موته بيده ؟.

ولاحظ صـدفة خاتم أمه - الذى أهداه ابوه لفينيلا - ليس فى أصبعها . فسألها عما اذا كان قد فقد . فصاحت : فقد ؟ . الخاتم الذى أعطيتنيه .. الذى أعطانيه القاضى ؟ اننى أموت لو فقد . كلا . انه معى .

وعلى ضوء القمر بدا له وجهها متوردا ، وهفا قلبه كما خفق قلبها .

وحان الوقت كى تأوى الى مضجعها ، ولكنهما احسـا انهما يأثمان لو ذهبا الى فراشهما فى هذه الليلة الرائعة .

وقال فيكتور : ان الحاكم يقول اننا سنرسو فى بورت سانت مارى فى الصباح .

- وماذا يهمنى ؟. ان المرأة اذا نالت كل ما تشتهى من الحياة . لم تأبه لأى مكان تذهب اليه ..

www.liilas.com

- وهل نلت أنت ما اشتهيت ؟.

فامسكت بيديها يديه وقالت : عم مساء .

واتقدت فى أحشائه نار الجوى . فرفع يديها الى شفتيه فسحبت يديه فضغطتهما الى صدرها وقال اذ آوى الى حجرته : انها تحبنى !. انها تحبنى !.

وماذا بعد ذلك ؟. لن يهمه من الدنيا بعد هذا شيء !.

***

لم يعرف فيكتور فى تلك الليلة للنوم طعما . بل راح يتقلب فى فراشه وهو يردد فى نفسه :

- انها تحبنى !. تحبنى !. تحبنى !.

وفجأة قفزت الى ذهنه صورة بيت الآنستين براون فى « ديربى هافن » .. ثم صورة الفتاة وقد جلست فى حجرتها تستذكر دروسها على ضـــوء الشمعة حتى تصير جديرة بأن تكون زوجته .!

يالله .. اذا كانت فينيلا تحبه ، فهو قد سرق حبها .. ليس له أى حق فيه ، انه مخادع .. جبان .. ولكن ، حمدا لله ، فهو لم يتماد بعد فى هذا الطريق . واذن فيجب ان يبتعد فى الحال عن طريقها .

وخلف فراشه ، وجلس يكتب مذكرة للحاكم يعتذر فيها عن مغادرته اليخت فجأة ودون انتظار للصباح ، لأنه تذكر ارتباطه بموعد هام ، ويعد بان يزوره فى اليوم التالى .. ثم غادر حجرته ، فى حذر .. واذ مر بحجرة فينيلا ، خفق قلبه ، وتندت عيناه بالدموع ، وأحس كما لو كانت أحاقت به لعنة أقصته عنها .

عندما استيقظ فيكتور فى قصر بالأموار فى الصباح التالى ، كان منهمك القوى مرهقا .. لم يستشر باله قط .. وخطر له ان يلجأ الى مشورة الحاكم ، فقد عهده عاقلا حكيما ، وهو لابد واجد له مخرجا من موقفه المضطرب .. ولكنه تذكر ان الرجل والد فينيلا .. على ان الامر لم يطل به ، فقد هداه التفكير الى قصة تنحى عنه اى شك ، ومن ثم يمم شطر بيت الحاكم فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهـــو الموعد الذى قدر ان يكون الرجـــل قد عاد وابنته فيه الى قصرهما .. وكانا قد وصلا فعلا

وقال الحاكم اذ استقبله : لقد فررت منا بمهارة .

فأجاب وقد شـــــعر بشفتيه ترتجفـــان : اننى آسف ياسيدى ، فقد كنت غافـــلا عن مهمة خطيرة وقد جئت اليوم أستشيرك بصددها .

- تستشيرنى ؟ اننى لست قانونيا كما تعرف ؟

- انها مسألة لاتتعلق بالقانون قدر تعلقها بالأخلاق .. انها مشكلة عميل لى ، بل وصديق أيضـــا ، ارتبط منذ زمن بفتاة ، ثم وجد نفسه اليوم أمام ظروف طارئة تجعله يتساءل عما اذا كان الواجب يحتم عليه الزواج من هذه الفتاة .

- أهو من أهالى جزيرة مان ؟.

- أجل .

- ومن أى طبقة ؟ فارتجف فيكتور ثم قال : انه فى مركز حسن .

وسألة الحاكم أن يقص عليه القصة . فراح يرويهـــا بحذافيرها فى خجل وفى صوت مرتجف . دون أن يذكر اسما من اسماء أبطالها . وانصت الحاكم وهـــو يجذب الدخان من

www.hilas.com

غليونه بعنف ثم سأله : اترى أن ماحدث لم يكن معتمدا ؟ وهل نجم ضرر ما ؟

وشحب وجه ستول . واجاب متلعثما : ضرر ؟. كلا . لا أظن .

ـ ومع ذلك فقد وعدها بالزواج ؟

ـ كان يشعر أنه مسئول عنها . ولكننى لاأظنه يحبها. وان خال هو ذلك يوما .

ـ وهل يحب اليوم غيرها ؟.

ـ بكل جوارحه . وهو الآن يسائل نفسه . ماذا عليه أن يفعل ؟. لقد أخبرته أن واجبه كرجل شريف يقتضى منه البر بوعده . فهل أصبت ياسيدى ؟.

ولكن الحاكم ظل برهة صامتا . ثم انتزع الغليون من فمه . وقال : كلا .. بل من الخطأ أن يتزوجها .. لا بل من الاجرام أن يفعل .

ـ اجرام ؟

ـ أجل . سيرتكب ثلاث جرائم معا . أولا ضد الفتاة . فهو لن يقرب الهوة بينهما بارساله اياها لتتعلم فى بضعة شهور .. ومن ثم فهو لن يسعدها . بل انه سيشقيها .. وأى امرأة ترضى أن يتزوجها رجلها لمجرد شعوره انه يؤدى بذلك واجبا عليه ؟. ثم انها لن تغفل عن حبه لغيرها . فاذا كانت مرهفة الحس سامية العاطفة فسوف تتحطم. واذا كانت على العكس فستجرفها الغيرة والحسد ، وستعمل على الثأر لكرامتها وكبريائها بتنغيص عيشه عليه . كذلك سيرتكب جريمة ضد نفسه انه شاب ذو مستقبل كما أظن . واذا كان أهلها من طبقة وضيعة . فسوف يشقى بهم وانتسابه اليهم .. وسيكونون حجر عثرة دون تقدمه فى الحياة ..

وجريمته الثالثة ستكون ضد المرأة التى يحبها . فاذا كانت تحبه فسوف تتعذب من أجله وهى لم ترتكب ما تستحق عليه العذاب . ستكون هى الضحية البريئة . سيحطمها صديقك هذا . واذن فباقدامه على مايعتقد أنه واجبه ، سيحطم حياة ثلاثة أشخاص ،

ـ اذن ، أتظن ياسيدى ان عليه بعد كل ماحدث أن يحجم ؟

ـ حتى ولو كان قد وصل معها الى باب الكنيسة .

وأحس فيكتور كأن السحب التى كانت تكفهر بها سماء حياته قد انقشعت .

ـ ولكننى أظن ياسيدى ، ان عليه فى هذه الحالة ، أن يعترف بالقصة للمرأة التى يحبها .

ـ أى بلاهة هذه . كلا . ماالذى يعنى فتاة طاهرة نقية الذهن ، من مثل هذه القصة .

وعندما نهض الحاكم يشيعه حتى الباب ، وضع يده على كتفه قائلا : اذا ارتكب المرء خطأ . فاول واجباته أن يكتمه فى نفسه . انه سر المرأة ، فلا يجب ان يكشفه لأحد أيا كان أبدا .

***

فى اليوم التالى ، جلس فيكتور فى حجرة المكتبة فى قصر بالامواز يحاول أن يكتب لبيسى خطابا يخبرها فيه انه تبين أخيرا انه لم يكن يحبها الحب الذى يسمح له بالزواج منها .. ولكنه كان مرتبك الذهن ، لا يكاد يكتب شيئا حتى يعود فيمزقه . وفيما هو فى هذه الحال أقبل أليك جيل لزيارته .

وسأله جيل أن يخرج معه ليتجولا حول القصر ليفضى

www.liilas.com

اليه بأمر هام كان مترددا . مضطربا ولكنه أخيرا جمع أطراف شجاعته وأفضى اليه بانه تبين انه مجنون فى حبها على الرغم منه . فقد كشفت لقاءاته المتعددة لها ، كلما ذهب ليطمئن عليها ويحمل لفيكتور أخبارها . عن أن حبه لها كان كامنا فى أعماقه . فنشط اليوم واستيقظ ، حتى انه يدفعه الى التفكير الجدى فى الزواج منها . وما كانت هى لتقل عنه رغبة .

ـ انه أمر فظيع . لقد طلبت بيسى الى أن أصارحك ، فلما ترددت أنذرتنى بأن تحضر هى لمصارحتك ، ولكنـــك تعذرنى ولا شك .

ولم ينبس فيكتور ببنت شفة . كان مذهولا مشدوها لتصرفات الاقدار العجيبة ..

وصاح جيل : مالك لاتجيب ؟. أعرف اننى جبـــان خائن ، ولكن لاتعذبنى بالله عليك . اصفعنى . أو اضربنى ، ولكن لا تطل الصمت .

وأخيرا . أفضى اليه ستول بما كان يعتزم عمله فى اللحظة التى أقبل هو فيها ـ وصاح جيل :

ـ أحقا ؟ اننى لا أصدق ، ومن هى ؟ فينيلا ستانلى . ما أروع هذا ! . وما أعظم الفرحة ! . اننى مااعتقدت يوما انك تحب بيسى . بل ظننت انك ما اعتزمت زواجها الا شعورا منك بالواجب الذى يحتم عليك انقاذها . بعد ان كان تأخرها معك ليلة المرقص سببا فى طردها من بيت بالدروما .

وأحس ستول براحة ناعمة تغمر قلبه ، وفكر فى أن من المحتمل أن بيسى صارحت جيل بما كان بينهما ، ومع ذلك .. فلماذا يؤذى حب جيل لها بأن يصارحه هو بالقصة ؟ لا . انه سر المرأة فليس من حقه أن يكشف منه لأحد ما قط .

وحانت ساعة الانصراف . فانطلق جيل فرحا يكاد لفرط غبطته أن يطير ليسارع الى بيسى فيحمل اليها النبأ السار . نبأ رضاء ستول عن حبهما .

* * *

لاول مرة منذ عهد طويل ، شعر فيكتور للطعام بلذة ، ونعم بالنوم طيلة ليله .

وفى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالى ، كان فى طريقه الى بيت الحاكم ، والهواجس تتناوبه لقد اطمأن من ناحية بيسى ولكن .. هل أصبح له رغم هذا ـ وهو الشخص الذى أثم وأخطأ ـ أن يطلب من فينيلا أن تكون له زوجة ؟ .

على انه ما وصل الى البيت حتى قابله الحاكم حاملا اليه نبأ هاما . فقد كان الحاكم مزمعا السفر الى لندن ليعرض على أولى الأمر ترشيحاته لمن يتولى قاضى محكمة الجنايات العليا .. الذى كان يشغله قاضى القضاة ـ والد فيكتور ـ والذى كان ينوب عنه فى شغله بعد استعفائه . القاضى توبمان . وكان لابد أن يصحب معه النائب العام .. ولما كانت هذه المحكمة ستعقد فى غيابهما ، فقد اقترح الأخير أن ينوب عنه فيكتور اثناء غيابه .

ـ انها فرصة ذهبية لك فلا ترفضها .. وسيرسل اليك النائب أوراق القضية التى ستنظرها المحكمة .. والآن ، ان فينيلا فى حجرة الجلوس ، وأظنك راغبا فى لقائها .

وخيل اليه أنه لم يرها يوما أجمل مما بدت له حين نفذ الى حجرة الجلوس .. وتناوبه خليط من العواطف المتباينة. من القوة والضعف .. من الجـــرأة والخـــوف .. من الفخر والخجل !

www.liilas.com

وَوقف جامدا على قيد خطوات منها ·· وخيل اليه أن فى نظراتها قوى خفية تجتذبه اليهـــا وهتف من أعماق قلبه : فينيلا ! ·

وفى اللحظة التالية كانت بين ذراعيه ، وقد التصق فمه بفمها ·

وبعد عشر دقائق ، أقبل الحاكم فما أن رآهما حتى صاح:

ـ من السهل أن أقرأ فى وجهيكما ما اتفقتما عليه ، ولكننى لن أوافق الا بعد ستة أشهر ·

الفصل الخامس

جيل وبيسى

كان دان بالدروما يجهد عقله ليل نهار فى ابتكار الوسيلة كى يستغل هذه العلاقة التى خال انه اكتشفها بين جيل وبيسى ·· ففى ذات صباح أجبر زوجته قسرا على أن تذهب الى زوجة رئيس النواب ، كى تهددها باثارة الفضيحة اذا لم يتزوج الفتى الفتاة ويرد عليها شرفها ··

وأنصتت مسز جيل الى حـــديث مسز كوليستر وهى تقاطعها من حين الى آخر مكذبة ، ثم صاحت اذ أتت هذه على نهاية حديثها : اذن فقد جئت تطلبين الى أن أنصح ابنى بالزواج من الفتاة ؟ · ولكن ، كلا · محال ·· اذا كانت الفتاة لا تخجل من أن تعيش مع الفتى ـ كما تزعمين ـ فكيف ترجين أن تصبح زوجة له ؟

ـ ولكن يا سيدتى ·· اذا كانت تعيش معه ·· فهو الآخر يعيش معها فهو شريكها فى الخجل والعار ·

ـ عجبا ·· كيف لا تشعرين بالفرق وأنت امرأة يا مسز كوليستر ، ولكن ، ما الـذى أدرانا ان ابنتك لم تـــكن هى

الساعية الى هذا ، لتجبر اليك الى الزواج منها ·؟ انى لنا أن نعرف انك وزوجك لم تغرياها على ذلك · ؟ انك تتحدثين عما يحيق بهـا اذا لم يتزوجها ، فهلا فـــكرت فيما يحيق به اذا تزوجها ·؟ اننى لن أدخـــر وسعا فى أن أحول بينه وبين الزواج منها ·

واتكأت مسز كوليستر على عصاها ،وجرت ساقها المتصلبة العضلات فى صمت ، وخلفت الدار وقد فشلت فى مهمتها ·

وانصت رئيس النواب الى حديث زوجته حين عاد فقصت عليه ما قدمت مسز كوليستر من أجله ·

ـ اليس بوسعك أن تسوى الامر مع الرجل · ؟

ـ مع دان كوليستر ·؟ كلا بل سأسويه أولا مع ابنى ·

ولم يطل به الانتظار ، فقد جاءه ابنه بعد قليل يسعى ، كان قادما ليفاتح أباه فيما اعتزمه ·

وصاح مستر ارشيبالد جيل فى ثورة : ألا ترى العار الذى ينتظرك ؟ ان كل الجزيرة تعرف أنك تعيش سرا مع امرأة لا تليق لأن تجالس أمك وشقيقاتك ·

وارتجفت شفتا اليك لفرط الغضب وصـــاح : كاذب من زعم لك هذا يا سيدى ، اننى مصر على الزواج منهـا ، وما قدمت اليوم الا لاحمل اليك النبأ ، وأرجوك أن تضاعف المبلغ الذى خصصته لمصروفى كل شهر ·

وامتقع وجه الأب، وصاحت الأم تهدىء من ثورته وتناشده أن يخفف من حدته ، ولكنه قال :

ـ أهذه ثمرة تربيتى لك ثلاثين عاما، أأنت الذى أعددته ليرعى بناتى بعد موتى ·· أضاعف لك المصروف · ؟ كلا ·· بل أنى سأحرمك منه اذا مضيت فى عزمك ·

فنهض اليك من مجلسه صائحا : حسنا اذن فسأعمل

www.liilas.com

كى اكتسب قوتى وقوتها · ساقتطع الأحجار من الجبال ، او أحمل الاثقال على عاتقى ، ولكننى لن أفرط فى قلامة ظفر منها ·

ـ أيها الأحمق التعس ·· لسوف ترى أنها ستتخلى عنك اذا ما علمت أننى قطعت عنك المرتب الذى كنت أمدك به ·

ـ أتظن هذا ؟ اننى أثق فيها يا سيدى ·

ـ اذن ·· عد اليها ·

وصاحت مسز جيل ضارعة : آرشى ·

ولكن زوجها اندفع فى ثورته : اخرج من هنا ، اذهب الى عشيقتك أو الى الجحيم اذا شئت ·

ـ لا حاجة بك الى طردى فسأخرج بنفسى وأشهد الله أننى لن أضع قدمى فى هذا البيت ثانية ·

وجذب آليك الباب خلفه وغادر البيت ، بينما اسرع ابوه الى النافذة وهو فى صوت محطم : اليك ! · عد أيها التعس ! اليك ·

وبعد قليل ، حمل الى فراشه وقد أصيب بحمى مخية قاسية ·

بعد يومين ، هبط أليك جيل فى محطة كاسلتون ، فى طريقه الى ديربى هافن ليلقى بيسى ، وهو يردد لنفسه : سوف أرى ان كانت ستتخلى عنى عندما تعلم اننى قد حرمت من مرتبى ؟ هراء ! ليست بيسى التى تفعل ذلك ·

ولكنه ما درى أن أحداثا جدت منذ آخر مرة رأى فيها الفتاة ·

كانت بيسى عندما أوفدها فيكتور ستول الى ديربى هافن حزينة متألمة ، وقد شعرت أنه أساء اليها بهذا ، كان من المؤكد انه معتزم الزواج منها ليصلح خطأه ، ولكنه

باقصائها عنه ، ثم عدم زيارته لها جرح كرامتها وحطم كبرياءها ، اذ كان تصرفه هذا دليلا على خجله منها · ومن الظهور معها · أو الاتصال بها ·· وودت لو أن أليك كان فى موضعه · فهو لم يخجل منها · بل أنه راح يتردد على منزل الآنستين براون ليزورها ويسرى عنها ويصحبها الى بعض النزهات ·· ومضى يغمرها بالهدايا · ويبدى اهتماما بأمرها ·· وشعرت أنها اذا كانت قد أحبت من قبل · فانما أليك هو الشخص الذى أحبته · والذى قبع حبه ساكنا فى قلبها حتى أيقظه بعطفه ورعايته لها ·· ورأت أنها جاهلة لا تليق به · ومن ثم كان السر فى انهماكها فى الدراسة والاستذكار عسى أن ترفعها الثقافة وتسمو بها الى مكانته·· حتى تصير جديرة به !·

وما كان اليك بأقل منها شعورا ·· فقد فطن الى أنه يحبها وأن هذا الحب يعود الى سنين طويلة مضت · حين كان يلتقى بها وهو طالب بكلية الملك ويليام ·· الى أن أثارت الصدف عواطفه ذات يوم · فاذا به يحتضنها · ولا يتمالك أن ينهال عليها بقبلات مشوقة حارة ·

ولم يعد حبهما سرا فيما بينهما ·· ولم تخجل بيسى أو تشعر أنها قد خانت فيكتور ·· ولكن جيل كان يرى أنه قد نكث بعهود الولاء لصديقه ·· وكان أن سعت بيسى حتى أغرته على الذهاب الى فيكتور · وعلى مصارحته بكل شىء ·

ولكنها فى اليوم التالى أحست بتوعك كان ينتابها أحيانا منذ مقدمها الى ديربى هافن · ولكنه لم يكن مرة بمثل وطأته من قبل ·· ولم تقل شيئا للآنستين براون · بل تسللت فى اليوم التالى فى سكون الى صيدلى فى كاسلتون · فشرحت له ما ينتابها ·

www.liilas.com

وأطرق الصيدلى برهة ثم سألها : أمتزوجة أنت يا سيدتى ؟

فأمسكت بانفاسها مشدوهة .. وأدركت فى اللحظة التالية ما دفعه الى هذا السؤال .. فانفلتت هاربة من وجهه.

وتذكرت ما سمعته فى حداثتها عن زلة أمها .. كأن التاريخ يعيد نفسه . واذن فلا مفر من أن تسأل ستول أن يتزوجها تجنبا للفضيحة ، فقد كانت ثمرة الخطيئة تنمو فى أحشائها . وحطم قلبها أن تفكر فى أن هذا سوف يحرمها من أليك جيل ، ولكنها تمنت فى نفس الوقت لو أنه فشل فى المهمة التى ذهب من أجلها ، ورفض ستول أن يتخلى عنها .

ومر بها يوم زاخر باسباب التعاسة والشقاوة، احتجزت نفسها طيلته فى حجرتها متعللة بأنها مريضة . ولم تنضب قط دموعها . ولكن جيل ما لبث أن قدم مع هبوط الليل . واندفع فى سرور يقص عليها موافقة فيكتور ستول على أن يدعها له . ثم أفضى اليها بما كان بينه وبين أبيه ، وهو متردد واجف القلب .

وسألته وهى تسحب يدها من يده : ولكن .. أترى أن فى زواجك منى خيرا لك يا جيل ؟

وتطلع اليها مشدوها . لقد أحس أن اللوعة التى كانت تبديها للزواج منه فى لقائهما الأخير قد خفت حدتها .

وسألها وهو متردد :

ـ بيسى ، ماذا حدث فى غيابى ! أنكِ ولا ريب لا تأبهين لاقدام أبى على حرمانى من المرتب ؟ فصاحت وهى تبكى : لا .. كلا !

ـ كنت واثقا من هذا . اذن فماذا حدث ؟ . أتفكرين فى

ستول ؟. لست الومك ، فأنا أعرف أننى لا أدانيه مكانة ، ولكننى مع ذلك ما كنت لأتخلى عنك له .

وتهدج صوته ، فتطلعت اليه . كانت الدموع تترقرق فى عينيه . فوهن جلدها . وفى صيحة باكية ألقت بنفسها على صدره ، وأسندت رأسها اليه ، وانخرطت فى البكاء .

وعندما انصرف بعد ساعة ، قالت تحدث نفسها :

ـ انه شغوف بى كل الشغف ، ولسوف يصفح عن زلتى .

ثم ألقت رأسها على الوسادة واستسلمت لنوم عميق .

* * *

عندما وصل أليك الى المحطة ، وجد القطار محجوزا ريثما يصل أعضاء محكمة الجنايات العليا التى كانت منعقدة فى ذلك اليوم لمحاكمة الرجل الذى قتل زوجته وهى القضية التى تولى فيها فيكتور ستول مهمة الاتهام نيابة عن النائب العام للجزيرة .

وانصت جيل لأحاديث القوم .. لقد قضت المحكمة بادانة الرجل واعدامه ،رغم عطف الجميع عليه ، وتقديرهم لظروفه .. فلقد تزوج الرجل من الفتاة التى قتلها ، فى الشتاء الماضى . ومع أنه لم يلبث أن أحس بأن ثمة صلة قديمة بينها وبين ابن عم لها ، الا أن ذهنه لم يتجه الى اتهامها بخيانته.. ثم حدث أن سافر مع قافلة من السفن اعتادت أن تجوب البحار للصيد .. وفى خلال هذه الرحلة ، تسلم خطابا جاء فيه أن زوجته وضعت طفلا ، ولم تمض ستة أشهر على زواجهما .. ولكنه تلقى النبأ صامتا ، وراح يسأل زملاءه عما يعلمونه عن ابن عم زوجه هذا ، فاذا به رجل سىء السمعة ردىء السيرة . . وفى ساعة متأخرة من ليل أول يونيو ،

www.liilas.com

عادت قافلة الصيد ، فاسرع البحار الى بيته .. ونفذ الى حجرة النوم لا يلوى على شيء ..

كانت الزوجة فى فراشها يقظى وفى عينيها بريق من الذعر الطاغى .. ولكنها حاولت أن تبتسم .. وواجهها بشكوكه ، ومضى يضيق عليها الخناق ، حتى اعترفت له ، واذ ذاك أحاط رقبتها بقبضتيه وأخذ يشد عليها حتى اختنقت ، ثم أضرم النار فى البيت .. كان انتقامه وحشيا ، حتى لقد رأى المحققون آثار أصابعه على رقبتها رغم أن الجثة كانت هشيما محترقة عن آخرها ..

وسمع جيل القوم يطنبون فى مديح ستول .. لقد ابدى براعة وذلاقة رفعته الى القمة ، فاكتسح كل شعور من العطف نحو القاتل .. وراح جيل يذرع افريز المحطة مترقبا صديقه فى لهفة حتى اذا أقبل ستول ، ارتاع جيل اذ كان الشاب يبدو كشبح شاحب اللون ، ومادرى أن القتيلة لاحت له أشبه الأشخاص ببيسى فى موقفها الجديد !.

واتخذ الصديقان مجلسيهما فى القطار ثم سأل ستول صديقه عن بيسى .

ـ انها بخير الآن .. لقد انزعجت قليلا فى أول الأمر لانفصالى عن الأسرة وفقدانى مرتبى .. كم أنا آسف اذ أخبرتها بهذا ، اذ أنها ستشغل بالها به .

ـ لا تأبه لذلك أنك تسحب من رصيدى فى المصرف جنيهين كل اسبوع للآنستين براون ، ولكننى سأسمح لك بعشرة على شريطة الا ترد الى شيئا حتى أطلبه اليك بنفسى .

وحاول جيل ان يعترض ، ولكن ستول أصر حتى حمله على قبول قراره .

وهبطا فى دوجلاس ، فانتظر جيل بصحبة صديقه القطار الذى كان سيحمل هذا الى قصر بالاموار ، وفيما هما واقفان ، قال جيل :

ـ بالمناسبة يافيكتور ، لقد طالبت باعدام ذلك البحار ، وأجابتك المحكمة الى ذلك ، ولكن ، ألا ترى أن الشاب كان على حق ، ومع ذلك فهو لم يقتل النفس التى كان يجب قتلها أتعرف ما كنت أفعل لو كنت فى موقفه ؟

ـ ماذا ؟

ـ كنت اقتل الرجل الذى اغوى الفتاة !

وجلس ستول واجما فى القطار وقد خيم على ذهنه شبح رهيب بشع ، لقد واتته نفس فكرة جيل ، وهو جالس فى مقعد الاتهام فى المحكمة ، ولكن موقفه مع بيسى يختلف لقد أرسلت اليه بنفسها جيل ليحلها من صلتها به .. كانت هى البادئة بالهجران

ومع ذلك فقد ظل طول الليل مضطرب المنام

الفصل السادس

نحو المجد

قال الحاكم لفيكتور وقد سعى لتهنئته بالعودة من لندن :

ـ بل أنا الذى يجب أن يهنئك يا بنى .. لقد نشرت الصحف فى لندن فقرات من مرافعتك الاتهامية فى القضية التى نبت عن النائب العام فيها .. لقد أظهر لى وزيرا الداخلية والحقانية اعجابا حارا بك .. ثم أخبرك أن محكمة تاينوالد قدمت اليوم مبلغا لاحياء ذكرى والدك تاركة لى اختيار الطريقة التى ينفق بها المبلغ .. وقد اتفقت مع مابلكرست أشهر رسامى الجزيرة كى يرسم

www.liilas.com

للقاضى الراحل صورة كبيرة تعلق فى قاعة محكمة الجنايات العليا .

* * *

وراح ستول خلال الاشهر الستة التالية يعمل فى نشاط لم يعرفه عن نفسه من قبل . لم يكن ليسمح لنفسه أن يضيع ساعة من وقته سدى . ولكن هذا لم يحل بينه وبين زيارة قصر الحاكم كل يوم ، ولقاء فينيلا ليقضى معها وقتا سعيدا مليئا بالمرح .

وأقبل الشتاء ، وانهمر الجليد يكسو الأرض بطبقة ناصعة براقة ، فدعا ستول فينيلا لزيارة قصر بالاموار من حين لآخر ! ليلهوا بالانزلاق على الجليد . وحدث أن كانا يمارسان هذه الرياضة عصر ذات يوم ، اذا بهما يكشفان نعجة غطاها الجليد وكادت تدفن حية فيه . فأسرع يزيحه عنها . ثم حملها على كتفيه الى كوخ الراعى القريب ، وفينيلا تتبعه . وقد تولاها اعجاب جارف . الرجل الذى يستطيع أن يحمل النعجة . فى وسعه أن يحمل امرأة بين ذراعيه

وعندما هما بالعودة الى قصر بالاموار حيث كانت عربتها بانتظارها قالت وهى ترميه بنظرة من طرف عينها :

ـ لقد عرفتك اليوم على حقيقتك . انك لست محاميا ! بل أنت أحد رجال قبائل الفيكينج التى سكنت هذه الجزيرة قديما ، ولكنك ولدت بعد جيلك بألف سنة . بل أنت أحد القراصنة الذين استولوا على الجزيرة فيما مضى والذين اختطفوا نساءها ، وأخشى أن تأسف لانك لم تعش فى عصر أجدادك ! فكنت تختطف لك زوجة

ـ ولم الاسف وقد اختطفت لنفسى زوجة فعلا .

ـ ماذا ؟ . اذا كنت تعنى . ؟ أواثق أنت ؟ . انك لم تختطفنى بعد يا سيدى

ـ اذن .. انظرى .. سأختطفك الآن .

وفرت منه ، فجرى فى اثرها . وراح يطاردها حتى لحق بها . وأغمضت عينيها اذ وجدت نفسها بين ذراعيه ، وقد راحت شفتاه تلهبان فمها وعنقها بقبلاته الحارة

كان ما يزال أمامهما ثلاثة أشهر قبل أن يوافق الحاكم

ومرت الايام .. ورحل الحاكم مرة أخرى الى لندن . وما كاد يهبط من السفينة التى عاد عليها الى الجزيرة . حتى أرسل الى ستول برقية يدعوه فيها لمقابلته فورا

وصاح الحاكم اذ رآه : لقد أردت لقاءك لاتحدث معك بصدد منصب قاضى محكمة الجنايات العليا .

ـ ماذا . ؟

ـ ان القاضى توبمان لم يكف عن الشكوى من وطأة العمل منذ اعتزل أبوك القضاء .. مما دعا الى تأجيل محاكمات كثيرة .. لذلك رحلت الى لندن لارشح قاضيا لمحكمة الجنايات العليا .. لدى أولى الامر .. وقد رشحتك أنت ..

ـ أنا يا سيدى . ؟

ـ أجل .. والعقبة الوحيدة هى سنك .. فلم يسبق أن تولى القضاء شاب فى الثلاثين من عمره .. ولكنهم ما لبثوا أن عرفوا أن رفع الشبان الى مناصب القضاء .. ظاهرة سبق وقوعها فى المستعمرات .. ثم أن تاريخ والدك يزكيك للمنصب .. وعلى ذلك .. فعليك أن ترحل الى لندن بعد عطلة عيد الفصح لمقابلة أولى الامر ..

تتابعت دقات قلب ستول فى عنف .. وتمتم يعتذر بأن ثمة من هم أكبر منه سنا وأحق بالمنصب .. ولكن

www.liilas.com

الحاكم ذكر له انه لم يرشحه لصلته به .. بل لما يعرف عنه من خلال ومناقب ونشاط .. ولما يتنبأ به من انه سيرث والده حتى فى اخلاقه وحبه للعدل .

ـ اننا نريد روح القاضى ستول الفقيد .. لتشرف على العدل فى الجزيرة .. نريد أن نأخذ المجرمين بالقوة .. وان نمحو الرافة بكل مدان . فان العدالة توشك أن تمحى من الدنيا .

وكان ستول يهتز مرتجفا عندما تحول الى المكتبة حيث كانت فينيلا تنتظره .. فما سمعت النبأ منه حتى صاحت : ما أجمل هذا .. لقد أسديت أجل الخدمات للنساء كمحام .. وسيكون أمامك الآن فرصة بسط يد المساعدة لهم كقاض .. ستجد النساء المسكينات المظلومات صديقا ونصيرا فى كرسى القضاء

* * *

القسم الثالث

الفصل الاول

حيرة العاشقين

كانت قضية البحار الذى قتل زوجته ذات اثر بعيد فى نفس بيسى كوليستر .. لقد اشعرتها ان الرجال لا يغفرون .. ان الرجل لا يصفح عن زوجته اذا تبين انها خدعته .. وارتجفت المسكينة وتملكتها الهواجس القاسية .. لو انها تزوجت أليك جيل الآن ، لتكرر الحادث .. وزاد من ارتياعها ما سمعته من آراء جيل عندما قادهما الحديث الى هذه القضية .. انه يرى أن الذنب ذنب الرجل الذى يغوى الفتاة قبل زواجها .. وان الزوج المخدوع اذا اراد أن ينتقم فليكن انتقامه من الرجل لا من المرأة !.

وداخلها شىء من الامل فيما بعد .. لقد كانت ما تزال فى الشهور الاولى من الحمل ، ففى وسعها ان تعمل على تدارك الامر .. لذلك ما لبثت أن راحت تتهرب من لقاء جيل .. وكان اذا لقيها يحاول ان يتعجل زواجها ، ولكنها كانت تستمهله ، فيظن انها تفعل ذلك لتزيد من ثقافتها حتى تسمو الى مستواه .

وحاولت بيسى أن تتخلص من ثمرة الخطيئة قبل نموها ، ولكنها كانت ساذجة لا تعرف الاساليب الشيطانية التى يلجأ اليها بعض الساقطات .. فاخفقت . وتولاها يأس مرير ، وراح جسمها يضمحل شيئا فشيئا ، والشقيقتان

www.liilas.com

براون في عجب من أمرها ودهشة لا يستطيعان أن يصلا الى أغوار نفسها أو يعرفا علة دائها . وجيل مشدوه متألم لصدودها ولكتمانها عنه ما يضنيها . ولكنه لا يلبث أن يعلل ذلك بارهاقها نفسها في دراستها . أو بحالة من الحالات النفسية التي تعترى فتاة فى مثل ظروفها .

وتكاتفت الشجون على بيسى .. ودت لو تعترف لجيل . ولكنها خشيت أن تؤلم نفسه . ثم تذكرت آراءه .. انه لن يتردد فى أن ينتقم من ستول.. وفكرت فى الفرار من ديربى هافن . ولكن كيف ؟ .. والى أين ؟

ومر شهران .. وتقدم حمل بيسى . فقويت فى نفسها فكرة الفرار .. وخطر لها أن تلجأ الى أمها .. ولكن الذعر ما لبث أن تملكها . اذ تخيلت لقاء دان بالدروما . وانه ولا بد سيقسو عليها .. لن يرحمها !

وسمعت يوما عن عرافة فى كريجنايش ، وهى قرية قريبة ، فما توانت عن أن تتسلل ذات يوم بحجة التنزه وأسرعت الى هذه العرافة . وقالت لها العجوز أن ثمة شابا يحبها كل الحب وامرأة تصلى ليلا ونهارا سائلة الله أن يردها اليها ، ثم .. هناك رجل عجوز . دنىء النفس . قاسى القلب ، دائم الثورة والضجيج .

واستطردت العرافة : انك مقدمة على أزمة عصبية . ولكن تجلدى فستتحسن الأمور فى النهاية . ولكن .. عودى الى أمك فى أقرب فرصة .

ـ وهل سيظل الشاب مخلصا لى مهما حدث ؟

ـ بكل تأكيد .

ـ ألن يمسه العجوز بسوء ؟

ـ انه لن يمسه أو يمسك ، فهو رغم صخبه وثورته لا يجرؤ .

وعادت بيسى الى ديربى هافن وقد غمر قلبها ارتياح ناعم . ولكنها ما وصلت الى البيت حتى وجدت جيل فى انتظارها .. لقد عرف دان بالدروما مقرها من قيصر كولتروغ الذى رآها تتنزه معه يوما . وهو يسعى الآن للوصول اليها . ولذا يرى جيل أن ترافقه للتو الى الكنيسة كى يعقد الكاهن زواجهما . وهالها الامر .. ولكنها أفلحت فى حمله على أرجاء العقد الى الغد ، ووافق أخيرا ، فقد كان ثمة حفل كبير اليوم لرفع الستار عن الصورة التذكارية للقاضى الراحل ، فى محكمة الجنايات العليا . كما أن ستول سيرحل فى صباح الغد الى لندن . اذ أن الاشاعات تسرى عن قرب تعيينه قاضيا للمحكمة العليا ولا بد لجيل أن يودعه .

وما كاد جيل ينصرف . حتى راحت بيسى تفكر جديا فى الفرار قبل أن يأتى فى اليوم التالى . لقد طمأنتها العرافة . فليس من ضير فى أن تهرب من جيل الى أمها حتى تضع جنينها . وتخفى اثمها .. ثم تعود اليه . لكيلا تفارقه بعد ذلك الى آخر حياتها .. ولكنها تألمت اذ فكرت فى أسى اليك لو انه جاء فى اليوم التالى فلم يجدها . ولذا لم تلبث أن كتبت اليه :

« لا تأت غدا ، سأكتب اليك ثانية فى الصباح ذاكرة السبب »

* * *

فى اليوم التالى ، كان فيكتور ستول فى طريقه الى انجلترا .. كان قد حضر فى اليوم السابق حفلة ازاحة الستار عن الصورة التذكارية لابيه ، فوقف يتحدث عن

www.liilas.com

العدالة بكلمات اجمع الحضور على انها ما كانت لتصدر الا من القاضى السابق .. لم يكن لاحد من حديث الا أن الابن قد بدا كأبيه تماما . .فى كل شيء .. فى الشكل ، فى الحركات ، فى الحديث .. يالله ! بل وفى الصوت .. لقد خيل الى الحضور أنهم يستمعون الى أبيه يحدثهم من وراء قبره .

وصعد فيكتور الى سطح السفينة التى ستقله الى انجلترا .. واجتمع فريق من أصدقائه المحامين يودعونه .. ولكنه كان مرهقا .. كان التفكير يكاد يحطم أعصابه .. فقد كانت المعركة دائما حامية الوطيس ضميره وقلبه .. بين الواجب والحب . وما كاد يهنأ برغبة جيل فى زواج بيسى ، حتى عادت قضية البحار قاتل زوجته ، تقض عليه هناءته .

كان مرهقا ، لذلك ما لبث أن آوى الى حجرته فى السفينة . وفجأة اقبل جيل هارعا مضطربا ، فقص عليه ما كان أعده بالامس كى يعقد زواجه على بيسى ، لولا انها رجته التريث الى اليوم .. ثم فوجىء برسالتها .. وقال فى صوت مرتجف حزين :

ـ ليس من سبب ظاهر سوى أنها أدركت أنها لا تحبنى الحب الذى يسمح لنا بالزواج .

فقال فيكتور يهون عليه : هراء يا صديقى .

ـ لقد أبرقت اليها اننى قادم اليوم . .ولو انها اصرت على رغبتها فى التخلص منى لخلفت الجزيرة الى اى بقعة أخرى فى العالم .. اننى لن اقوى على البقاء ، خصوصا كلما تذكرت قول والدى أنها سوف تتخلى عنى

ـ أظنها لم تكن فى حالة حسنة فى المدة الاخيرة ؟

ـ ان مس براون تعزو هذا الى تغير البيئة .. ولكن ،

فيكتور ، هل لك أن تسدى الى يدا فوق اياديك ؟

ـ بالتأكيد . اى خدمة ؟ .

ـ ان قلب المرأة مستعص على عيتى الرجل ، لا تستطيعان فتح مغاليقه فاذا كانت بيسى راغبة فى التسويف ، فهل تعد أن تذهب معى الى ديربى هافن عند عودتك . لترى بنفسك كنه أمرها ؟.

ـ بكل تأكيد . اقصد . اذا رايت .

وصاح ملاح يطلب الى المودعين الهبوط الى الشاطىء ، ولكن جيل لم يتحرك حتى أخذ على ستول وعدا بذلك .

وبعد قليل أقلعت السفينة .. وتطلع ستول الى قصر الحاكم . فاذا بشبح ابيض فى احدى النوافذ يلوح له بمنديل . كانت فينيلا تودعه .. ولكنه لم ير امامه غير عينيها السوداوين تبسمان له .

الفصل الثانى
« عودة بيسى »

تلقت بيسى برقية جيل يعلن انه قادم رغم رسالتها ، ولكنها كانت قد عقدت العزم على الفرار . فأسرعت ترتدى ملابسها . ثم جلست تكتب له فى عجلة :

« عزيزى اليك : اصفح عنى . يجب ان ابتعد عنك فترة من أجل صحتى ، ولكننى لن البث ان استعيد قواى سريعا . فأدعو اليك كى نتزوج ونستعد . لاتخال أننى لا احبك . فما احببت احدا حبى لك ، ولكننى فى حالة قاسية ولم استطع الفرار من أفكارى .. ورجائى يا عزيزى اليك الا تبحث عنى ... بيسى »

وكانت المرحلة قاسية . لم تكن تملك نقودا فاضطرت الى قطعها سيرا على الأقدام ، وكانت الأرض صلبة ، والجو

www.lilas.com

متقلبا ، والهواجس تعبث برأسها .. والمخاوف تتنازع قلبها ، ولكنها واصلت السير فى شجاعة وصبر .

وأرخى الليل سدوله ، وبدأ المطر يتساقط ، والرياح تثور . فخلعت نعليها ، وواصلت المسير متجلدة . كانت الصدف موالية لها . فكانت طريقها فى بقعة خاوية ، شبه صحراوية . فامنت أن تراها العيون ، وكانت كلما أحست بالتعب أو الالم ، تذكرت أنها تضحى فى سبيل اليك ، فلا تلبث أن تتناسى آلامها .

وتذكرت ستول مرة فثارت نفسها .. انه ولا بد الآن فى طريقه الى لندن مرتاحا منعما ، وهى تشقى وترهق نفسها .. لماذا ؟ انها ما أحبته .. وهو لم يحبها .. ولقد ارتكبا الاثم معا ، ولكن .. لماذا لا يتساويان فى نصيبهما من القدر ؟ وكفرت فى ساعة السخط فسبت الطبيعة وتمردت على الله . ولكنها تذكرت حديث العرافة .. سينتهى كل شىء على خير فلتتجلد ! .

وعند انبثاق الفجر ، كانت تخترق الوادى الذى تقع مزرعة بالدروما فى طرفه .. كانت منهكة القوى ، محطمة الاعصاب ، ولكن اقترابها من البيت بعث فى نفسها الجلد والأمل .. لم تلتق فى طريقها بأحد .. لم تر نافذة مفتوحة .. اذن فلم يرها أحد .. وزفرت فى ارتياح .. وتبدت لها طاحون دان ، فما راتها حتى اجفلت فجأة ، اذ تذكرت الرجل .. ولكن ، ما الذى يهمها ؟ ألم تطمئنها العرافة من ناحيته ؟

وحدست أن دان ولا بد فى فراشه فى مثل هذه الساعة . وفى خطى بطيئة تقدمت .. فاذا الباب مغلق .. ولكنها سمعت صوتا فى المطبخ فتحولت اليه .. وبقلب خافق دفعت الباب الخلفى فاذا هو مفتوح .. وتقدمت

خطوة فاذا أمها جالسة على مقعد مهشم تعد طعام الافطار .. ورأتها الام فاتسعت حدقتها ذهولا .. وسادت لحظة صمت حاولت بيسى خلالها أن تتكلم فلم تستطع .. وتحاملت الام حتى وقفت معتمدة على عصاها وهى ترتجف ، كما لو كانت ترى شبح شخص كانت تطيل التفكير فيه .

وقالت هامسة فى صوت متقطع : أهذه انت يافتاة ؟

وصاحت بيسى : أماه ! .

وتقدمت خطوة أخرى .. ثم ساد الصمت مرة ثانية .. ولاحظت أن أمها تتأمل مظهرها بعينين فاحصتين .. ثم هوت العصا من يد العجوز .. واهتزت فى عنف وصاحت فى صوت باك :

— رحماك يا الله .. رحماك ! . ان مأساتى تتكرر ثانية ! .

وفى اللحظة التالية . ألقت بيسى بنفسها فى أحضان أمها وهى تجهش بالبكاء .. لقد أدركت الام خطيئة ابنتها ! .

* * *

أقبل دان بعد قليل . فوجد الفتاة جالسة فى ركن من المطبخ مقبلة على الطعام الذى قدمته لها أمها . وعرف لاول نظرة ألقاها عليها ، حقيقة موقفها . فصاح :

— يا الله ! . أعادت ثانية ؟ . ألم أقل لك يا امرأة انها ستعود من تلقاء نفسها ؟ ولكنها عادت غنية ترتدى ثيابا فخمة . أى تواضع وكرم أن تزور فقيرين مثلنا !

وصاحت الام : كفى أيها الرجل ! . ألا ترى انها أقبلت ماشية ؟ .

وأغلق الرجل قلبه دون كل نداء للرحمة . وأصم أذنيه عن توسلات الأم . وأصر على أن يطرد الفتاة .

www.liilas.com
www.alkottob.com

ووقفت الام حيرى بين ابنتها وزوجها .. وحارت الفتاة . وثارت الامومة فى قلب الام . فاذا بها تثور على الرجل . ماذا يملك فى البيت ؟ . ان البيت بيتها . والطـــاحون ميراثها من أبيها . وما آلا اليه الا ثمنا لزواجه منها . فاذا شاء أن يطرد الفتاة . فليذكر أنها ليست فى بيته . ولم يسكت الرجل . فراح بدوره يعيرها بماضيها وخطيئتها . ويعدد الاشاعات التى يتناقلها الناس عن ابنتها . ويهدد بأن يذهب الى رئيس النواب ليجبره على أن يزوج ابنه من الفتاة . والا فسيعرض الامر على القضاء . ولن يلبث القاضى الشاب ستول أن يفد الى الجزيرة ليتسلم منصبه . فتكون أولى القضايا التى يفصل فيها . وهى القضية التى يرفعها دان على صديق القاضى .. على اليك جيل ! .

ولكنه ما لبث أن تراجع أمام ثورة الام . فخلف البيت ساخطا .

الفصل الثالث
شبح القانون

لم تدر بيسى بما حدث بعد ذلك . ولكنها احست بنفسها تستند على ذراع أمها الى حجرتها القديمة . حيث استلقت على فراشها . وهمت أمها أن تدعو الطبيب .. ولكنها ابت وطلبت ان تظل وحدها ! .

وهبط الظلام أخيرا بعد يوم طويل ممل قضته فى التفكير فى طفلها الذى لم يولد بعد ، وطفت على قلبها كراهية للطفل المنتظر . انه نذير الشر الذى سيدمر كل شىء . فلماذا لا تقتله انها تشعر باقتراب قدومه . فلو اتيحت لها العزلة التى تبغى ، لفعلت .

وراح ذعرها يتزايد بين لحظة واخرى ، واشتدت عليها وطأة الالم ، واحست بشىء غير عادى يستولى

عليها . فهمت أن تنادى امها . ولكنـــها تراجعت ، وفى غمرة الوحدة والظلام هتفت من أعماق قلبها تنادى اليك ، ولكن .. لم يسمعها غير الظلام ، وأخيرا فى قسوة الألم . ترامت على الفراش . ثم فقدت الوعى ، ولما عاد اليهـــا شعورها ، كان يداخلها ارتياح طـــاغ وقد ولى عنها الالم ، وسمعت صيحة خافتة فظنتها لاول وهلة صدى لافكارها ، ولكنها فى اللحظة التالية أدركت .. أن طفلها قد ولد .

لم تفكر فى الاستعانة بامها . بل اسعفت نفســـها بنفسها . .وخيل اليها أن ضعفها قد فارقها ، وأن قواها عادت اليها .. واكتسحتها سيول من السعادة . كانت عاطفة الامومة قد تملكتها فانســـتها الكراهية التى كانت تحسها نحو الطفل الوليد قبل مولده ، واحتضنت الطفل كصغيرة فرحة بلعبة جديدة واتتهـــا ، ولكنها ما لبثت أن سـمعت خطـوات دان بالدروما يصعـد السـلم عائدا الى فراشه .. واوشك قلبها أن يكف عن الحركة ، واطفأت النور . ثم ارهفت سمعها . .ولكن فى اللحظة التالية ندت من الطفل صيحة واهنة . كان يهم بالبكاء ، وتولاها ذعر جنونى . فوضعت يدها على فم الطفل تكتم صيحاته حتى لا يسمعها الرجل القاسى .

ولما اطمأنت الى أن الرجل قد آوى الى فراشه . عادت ترفع الطفل بين ذراعيـــها ، ولكنـــها كانت جثة هامدة . فقد اختنق حين كتمت بيدها صيحاته . لقد قتلت وليدها ! .

* * *

عندما استيقظت بيسى فى الصباح التالى . كانت تخال أن مامر بها فى ليلتها الماضية كان حلما رهيـــبا ، ولكنها ما لبثت أن وجدت الوليد الميت الى جوارها .

www.liilas.com

فدفعته تحت الاغطية حتى لا تراه امها اذا دخلت عليها الحجرة .

وظلت يومها ملازمة الفراش لا تبارحه قط ، وهى تفكر فى موقفها .. كان على نصف ميل من البيت ، كثيب يقوم فى الوادى .. تعلوه صخرة ذاع بين اهل الجزيرة أنها محوطة بالأرواح .. اذ قتل عندها رجل فيما مضى .. فكان الكل يخشون الاقتراب منها .. بل ويتباعدون عن طريقها .. فقررت بيسى أن تترقب الليل حتى اذا أقبل وانتصف .. حملت الوليد الميت اليها .. فدفنته تحتها .. دون أن يدرى أحد .. أو يشعر .. حتى ولا امها . !

ومر اليوم متباطئا .. وكانت امها تتردد عليها طيلة النهار .. ولكنها أخفت عنها كل شيء .. وان كان قلب الام التى عرفت فى شبابها مرارة الخطيئة قد شعر بكل شيء .. فكانت تلقى عليها نظرة صامتة وكأنما تعتب عليها عدم ثقتها فيها

وأقبل الليل .. ثم انتصف .. وقبيل الفجر غادرت فراشها وارتدت ملابسها .. ثم لفت الطفل فى وشاح كان اليك جيل قد أهداه اليها .. ولكنها فطنت أن اسمها قد طرز على طرف منه .. فاقتطعت هذا الطرف .. ثم تسللت هابطة .. وقد خلعت نعليها حتى لا يشعر بها أحد .

لاحت لها الطريق وعرة .. والظلمة داكنة .. ولكنها لم تأبه لشيء .. بل مضت فى عزم وجلد .. حتى وصلت الى الصخرة .. واحست بضعف وخور . وهفت الوحشة بأعصابها .. وفجأة اخترق الظلام لسان من اللهب عبر الوادى من أوله الى آخره .. فخيل اليها أنها نظرة سخط ارسلتها عين ترقبها من السماء ..

فارتجفت .. وهمت أن تنبطح على الارض تخفى نفسها ولكنها ما لبثت أن تجلدت .. وزحفت الى الصخرة .. وفى فجوة تحت أحد أطرافها .. ألقت الطفل ثم ولت هاربة .. وهى ترتجف وتبكى .. وهتفت والدموع تغمر خديها .. « اليك ! اليك ! » وكأنما أمدها الاسم بقوة منه فجدت فى السير عائدة .. ولكن .. لاح لها فجأة شبح رجل قادم نحوها يحمل مصباحا فى يده .. فتوارت حتى مر .. ثم هرعت الى البيت .. فتسللت الى حجرتها .. واستلقت على فراشها .. ثم راحت فى سبات عميق لفرط ارهاقها .

* * *

على أن المسكينة لم تدر انها رغم مبالغتها فى الاحتياط .. ما كانت لتستطيع أن تحيد عما أراده لها القدر .. فقد حدث أن كان يجاور مزرعة بالدروما .. رجل استأجر من دان بالدروما جزءا من الارض التى استأجرها هذا من مستر ارشيبالد جيل

وكان الرجل — ويدعى ويل سكيليكورن وزوجه بريدجيت — على شقاق دائم مع دان .. ففى ذلك المساء كانت بقرة الزوجين قد أصيبت بمرض قاس .. فظلا طيلة الليل يحاولان علاجها بكل ما عرفا من وسائل العلاج .. حتى اذا فشلا .. قر رأى الزوج ان يذهب الى شخص عرف ببراعته فى علاج مثل هذه الحالات .. على حوالى العشرة أميال من الوادى .. فحمل مصباحه وانطلق .

ولكن بريدجيت العجوز لم تعرف للنوم طعما .. بل جلست فى الحظيرة — وقد وضعت مصباحا أمامها — ترقب البقرة المريضة .. وانصرم الليل وهى جالسة وأوشك الفجر ان ينبثق .. وخيل للعجوز — فى غمرة الظلام —

www.liilas.com

ان صيحة ارتفعت من ناحية « صخرة الرجل القتيل » فنظرت نحوها . واندفع فى تلك اللحظة شهب ثاقب .. بدا كلسان من اللهب يخترق الوادى .. فرات على وميضه شبح امراة لدى الصخرة .. ترى من تكون ؟ . كانت اذ ذاك تفكر فى الخصم اللدود الذى سعى دائما الى الاساءة اليها والى زوجها .. والذى تظنه اساء الى البقرة .. كانت تفكر فى دان بالدروما .. فما لبثت أن وجدت نفسها تتساءل .. ترى أتكون تلك المراة ابنة زوجته ؟ . ولم لا ؟ ولكن .. ماذا كانت تفعل عند الصخرة الرهيبة ؟ .. يا لله !

وعاد زوجها فى تلك الاثناء حاملا الدواء للبقرة فما راته حتى بادرته سائلة :

ـ الم تلتق بشخص وانت قادم ؟ ..

ـ اظننى التقيت ..

ـ اكان امراة . ؟

ـ اظنه كذلك .

ـ هل دخلت بيت بالدروما ؟

ـ اعتقد ذلك .

وبدت فرصة الفوز والشماتة على العجوز .. فاسرعت الى الصخرة .. وقد املت أن تجد فرصة للتشهير بخصمها اللدود دان .. وكان أن وجدت الطفل .. فأسرعت تحمل النبأ الى « الكونستابل » الذى يشرف على الأمن فى الوادى .

* * *

افاقت بيسى على صوت الطبيب فى الصباح وقد وقف مع أمها الى جوار فراشها ..

وسمعت الطبيب يتساءل : ان قدميها داميتان ، فاين تظنينها كانت . ؟

وسمعت أمها تتمتم فى صوت أجش .. ولكنها لم تدر ما قالت .. بل غشيت ذهنها غشاوة .. ولما افاقت ثانية كانت أمها والطبيب قد غادرا الحجرة .. وانساب اليها خلال الباب المفتوح صوت امراة تصيح : ما كنت اعلم أن ابنتك عادت يا ليزا كوليستر .

فأجابت أمها : ومأادراك يابريدجيت سكيليكورن . ؟

ـ ما ادرانى .. سيأتى الآن من يخبرونك بذلك .

وارتجفت بيسى .. ترى هل كشف أحد سرها . ؟ وما عتمت أن سمعت دان يحدث أمها ان جارتهم العجوز البغيضة قد عثرت على شىء لدى « صخرة القتيل » فأبلغت البوليس الذى وجد أن هذا الشىء جثة لقيط ، وان الطبيب الشرعى يعمل الآن فى تشريحها بينما صدرت الاوامر الى الكونستابل « كين » أن يفتش بيوت الجهة بيتا بيتا بحثا عن أثر لام الطفل ..

وفى ساعة مبكرة من اليوم التالى .. استيقظت بيسى على جلبة فى البيت .. كان الكونستابل كين قد اتى للتفتيش وشاء أن يراها .. ولكن أمها أصرت على منعه متعللة بأنها مريضه غائبة عن الوعى .. فنزل عند ارادتها على ان تسمح له أن يلقى نظرة على حجرة الفتاة .. واحست به بيسى وهو يلج الحجرة . ثم سمعته فجأة يصيح : « ما هذا ؟ . انها بقية من ثوب على ما اظن .. سآخذها معى » ! .

وعندما خرج . ادركت بيسى أن البوليس يشك فيها . وان رجاله عثروا على دليل يساعدهم . ولن

www.liilas.com

يلبثوا أن يدفعوا بها الى براثن القانون لعقابهـا .. أى أداة سيئة هذا القانون انها لم تؤذ احدا .. لم تؤذ نفسا رآها احد فى هذه الدنيا .. كل ما هناك أنها حاولت أن تنقذ شخصا تحبه من العار والالم ! .

* * *

بعد ثلاثة أيام . كانت بيسى قد استعادت قواها . فمضت تقص على أمها أن الامر لم يعد انها أحست الما لا قبل لها به . فلجأت اليها لتكون تحت رعايتها . ولكنها وقد شفيت ستعود الى حيث كانت .. الى اليك الذى يحبها والذى كاد يتزوجها منذ أمد لولا أنها أغرته على التريث حتى تفدو فى صحة جيدة .

ولأول مرة منذ شهور طويلة شعرت بالسعادة والهناءة .. ولكنها لم تدر ماخبأه القدر لها . ففى صباح اليوم التـالى . استيقظت على صوت الكونستابل كين وقد جاء ليقبض عليها

وصاحت الام : ولكنها مريضة .. انها لم تغـادر حجرتها منذ قدمت

ـ سندعها فى مستشفى السجن حتى تحـاكم أمام محكمة الجنايات العليا . فقد اجتمعت الادلة على ادانتها ! .

الفصل الرابع

ستول فى لنـــدن

انقضت عشرة أيام على وجود ستول فى لندن . تلقت بعدها فينيلا رسالة منه . بدأها بحبه وشوقه . ثم أتى على طرف مما دار بينه وبين أولى الأمر بشأن المنصـــب الذى كان مرشحا له .. كانت المشكلة الهامة هى صغر سنه . فلما زالت هذه العقبة اذ تبين أولو الامر أن لهـا

سابقات فى المستعمرات الانجليزية .. نصحه الراغبون فى مساعدته ، أن يسارع بعد ذلك بالزواج . ثم .. سارت الامور وفق ما كان يروم

واستطرد يقـــول : « قادتنى قدماى بالامس الى مؤسسة رعاية المرأة التى كنت تساهمين فى ادارتها . فأسعدنى أن أرى الاطفال الذين تعنى بهم المؤســسة . يعيشون كملائكة صغار .. بيد أن سعادتى لم تلبث أن تلاشت عندما فكرت فى أمهات هؤلاء الصغار . « أبنـــاء الخطيئة والعار » . والظروف التى وضـعن فيها هؤلاء الاطفـال ، فى تكتم ، وحيـدات ، ذليـلات ، تحت طغيـان الشعور بالاثم . كم من هاته البائسات فكرن فى قتل أطفالهن . فى الوقت الذى تصبو فيه غيرهن الى الاطفال . وكم امتـدت يد القـانون العـاتية الى هاته المسكينات بالعقاب . يا لله ! . كم من جرائم ترتكب باسم القانون ؟ »

وجاءه رد فينيلا سريعا .. كانت ســعيدة اذ كان خطابه أول خطاب غرامى تلقته .. ففرحت به كما لو كان هدية العـرس ، وأخبرته فى ســياق الحـديث ، أن ثمـة قضية جديدة تشغل بال الجزيرة كلها وتحتل المكان الاول من أحاديث اهلها . فقد فرت احدى البنات الريفيات من منزل أسرتهـا منذ بضعـة أشهر ، ثم عادت أخيرا وهى فى أقصى حالات المرض .. فلازمت فراشـــها الى أن قبض عليها أخيرا واتهمت بأنها وضعت طفلا وقتلته ثم دفنـــته تحت صخرة على نصف ميل من بيت أسرتها . وأنكرت الفتاة كل علاقة لها بالطفل . ولكن الفحص الطبى ضدها على خط مستقيم . وكان أن حولت على محكمة الجنايات العليا .. ولذا فمن المنتظر أن تكون هى أولى القضايا التى ينظر فيها ستول .

www.liilas.com
www.alkottob.com

« انها الآن فى مستشفى السجن . وقد ذهبت لزيارتها هذا الصباح . فاذا بها جميلة رغم آثار المرض التى تعروها . ولقد احببتها . ولكنها لم تبد اى حب لى . بل هى على العكس تجفل منى وتشيح بوجهها عنى . وهى ملتزمة الصمت والانكار . ويخيل الى انها اما ان تكون كاذبة متمادية فى الكذب . او انها بطلة نبيلة . وأكاد أعتقد انها الاثنتان معا .. ولكن مظهرها وملابسها ينمان عن ان شريكها فى الاثم من طبقة أعلى من طبقتها .

« من المؤلم . بل من الغبن ألا يسعى القانون الى معاقبة الرجل الذى يحطم حياة فتاة وروحها احيانا .. ولكننى ادعو الله ان تكون أنت القاضى الذى يفصل فى قضيتها وقد رأت جمعيتنا ان تأخذ على عاتقها امر الدفاع عنها ، فمن تظنه أقدر المحامين على تولى الدفاع عنها .

« اننى اعتزم حضور المحاكمة ، والوقوف الى جوار الفتاة . بعد ان هجرها الجميع ، وكم أود لو كشفت النقاب عن شريكها فى الاثم ، وفضحت امره أمام العالم باسره . »

وأسرع فيكتور ستول يكتب اليها ناصحا ان تلجا الى اليك جيل للدفاع عن الفتاة .. « ان المسكين لم تواته الفرصة لاظهار نبوغه ، ولكننى واثق من فوزه وستجدين مع رسالتى قائمة باسماء المراجع القانونية والطبية التى يستطيع الاستعانة بها فى اعداد مرافعته .. وانى لأشاطرك أعجابك بالفتاة لاصرارها على كتمان شريكها فى الاثم . أما عن رغبتك فى الوصول الى معرفة شريكها فاننى أود ان أذكرك بالحكمة المعروفة . من كان بلا خطيئة فليرم بحجر !. »

على انه قبل أن يرسل الخطاب . تلقى المرسوم بتعيينه قاضيا لمحكمة الجنايات العليا بجزيرة « مان» فاسرع يحمل اليها البشرى .. ويعد بقرب عودته الى الجزيرة . واليها هى !

الفصل الخامس

« القاضى الجديد »

قضى اليك جيل عشرة أيام يبحث عن بيسى دون ان يوفق فى العثور على أثر لها . فقد لم يخطر لها انها قد لجأت الى بيت دان بالدروما . فقد كان يعرف مقتها للرجل الفظ الغليظ القلب

ولم يعرف فى هذه الأيام العشرة طعما للنوم أو الراحة .. ولم يشعر بالعالم الذى يحيط به .. بل أنه لم يكن يابه حتى لنفسه فاهمل كل شىء . ولم يعبأ بأقاويل الناس عما اعتراه .

وأخيرا عاد الى دوجلاس محطم القلب .. كسير النفس .. مشغول الخاطر .. فما أن ذهب الى مكتبه حتى فوجىء بخطاب من دار الحاكم ... واسرع يفضه .. فاذا به من فينيلا ستانلى .. تذكر له انها تكتب له باسم « جمعية حماية المراة » .. نزولا عند نصيحة مستر ستول .. كى تنيط به مهمة الدفاع عن الشابة التى اتهمت فى شمال الجزيرة بأنها قتلت طفلها الحديث الولادة .. ولذا فهى ترسل اليه مع رسالتها نسخا من محضر التحقيق والأوراق الهامة التى ضمها ملف القضية .

وتابع جيل قراءة الرسالة وقد بدا يرتجف .. واستولى عليه شعور غريب خفق له قلبه بعنف ..

« ان المحقق لم يسال زوج أمها .. ولا اظن ان الدفاع سيجد عنده المساعدة المنشودة .. وسواء كانت الفتاة مدانة او بريئة .. فانها قد قاست ما فيه الكفاية .. انها ستغادر مستشفى السجن اليوم ، الى سجن كاسل روشن فارجو ان تبرق لى بموافقتك .. اما اسم الفتاة فهو .. بيسى كوليستر » .

www.liilas.com
www.alkottob.com

وصرخ جيل وقد أحس بلطمة قاسية دار لها رأسه .. انها أكذوبة ولا شك .. بيسى تقدم للمحاكمة لانها قتلت طفلها .. ومتى كان لها طفل . ؟ انها أكذوبة .

وأسرع يلتهم الأوراق التى أرسلتها له فينيلا .. من المؤكد أنها أكذوبة . فان بريدجيت سكيليكورن وزوجها — وهما اللذان أبلغا البوليس — على شقاق مستعر الأوار مع دان بالدروما .. ولابد ان بلاغهما ملفق للنكاية .. انهما دسيسة حقيرة .. مؤامرة دنيئة ولا ريب للكيد لدان بالدروما .!

وراح يدور فى حجرته كالمجنون .. يجب أن يرى بيسى يجب أن يخلصها من سجنها ويعلن للجزيرة بأسرها براءتها وطهرها .. وما لبث ان اندفع الى مكتب التلغراف فأبرق الى فينيلا بموافقته .. ثم أسرع يستقل القطار الى كاسلتون ليرى بيسى فى سجنها . وقبل أن يتحرك القطار سرى الى مسمعيه صياح باعة الصحف منادين بنبأ تعيين ستول قاضيا .. يالرحمة الأقدار التى ساقت للفتاة المسكينة .. قاضيا رحيما ينظر قضيتها .. !

***

قضت بيسى بضعة أيام — عقب القبض عليها — فى مستشفى السجن فى شبه غيبوبة لا تكاد تفيق منها الا لتعود اليها . وهى تهذى باسم « أليك » دون أن تعى شيئا مما حولها .

وفى اليوم الذى أفاقت فيه من غشيتها . اقتيدت الى قاضى التحقيق . ولكنه لم يستطع ان يحصل منها على شىء جديد . فقد اصرت على الانكار . والانكار على طول الخط فلم يجد القاضى بدا من ارسالها الى سجن كاسل روشن . ريثما يحين موعد تقديمها للمحاكمة امام محكمة الجنايات العليا .

وفى الطريق الى سجنها . استطاعت ان تعرف من حراسها طرفا من الأنباء التى وقعت فى غيبوبتها .. وعرفت أن فيكتور ستول قد عين قاضيا وأنه غالبا سينظر قضيتها ..

يالسخرية الاقدار !. سيكون ستول قاضيها !. ترى ماذا سيكون موقفه ؟. سيؤدى « الواجب » ولا ريب .. فليكن . فانها هى الأخرى لديها خطتها . فبعد أن يفرغ من محاكمتها والحكم عليها .. سيكون لديها ما تقوله .. وليكن ما يكون ! .

وفكرت فى سجنها فى أليك جيل .. لسوف يمسه قسط من عارها ! يالله . لقد تسببت فى اذاه وضرره . ولو أنه هجرها . لكان له الحق فى ذلك ؟ فقد خدعته هى من قبل.

والقت بنفسها على فراش السجن الخشن .. وحاولت النوم لتتخلص من أفكارها . ولكنها ما لبثت أن سمعت وقع أقدام الحارس .. ثم صوته يعلن لها مقدم المحامى الكسندر جيل .

***

هتف جيل لاهثا . بعد ان غادر الحارس حجرة السجن بيسى !.

وانكمشت بيسى فى فراشها دون أن تجيب .. ورأت الدموع تترقرق فى عينيه . ثم سمعت صوته متهدجا يقول : بيسى .. أنا اليك !. الا تجيبين ؟ .

وصاحت باكية : اخرج .

— لن تطردينى يابيسى . لقد نقبت الجزيرة بحثا عنك . وما علمت بما حدث لك الا اليوم . فسارعت لمساعدتك .

— أعرفت ما قالوه عنى ؟ . وهل ترانى بعده بريئة ؟.

— اننى واثق من براءتك وطهرك ..

www.lilas.com
www.alkottob.com

وصاحت . ثم القت بنفسها فى احضانه باكية .. وظلا فترة متعانقين لا يشعران بما حولهما تشبثت بعنقه وهو يذكر لها ماجاء بخطاب فينيلا . ثم رجاها أن تسمح له بالدفاع عنها .

فصاحت : أنت ؟.. لا .. لا يجب ..

ـ ولكن لماذا يابيسى ؟ . الا تطمئنين الى ..

ـ لا . ليس هذا ..

وقامت فى نفسها معركة حامية الوطيس : ياللسخرية .! ها هوذا الشاب الذى أساء اليها . يجلس فى مقعد القاضى الذى سيحكم عليها . أما الشاب الذى أساءت هى اليه . فيتلهف شوقا الى أن تسمح له بالدفاع عنها . وانهمرت الدموع من عينيها . فبكى اشفاقا عليها .

وقال اليك : اسمعى . انها مؤامرة دنيئة . فيجب أن نتعاون فى دفعها عنك .. حتى تغادرى المحكمة وقد انمحت عن اسمك كل شائبة حاولوا الصاقها بك . سأدافع عنك فلا تعارضى .. وكل ما عليك هو أن تقولى انك لا تعرفين شيئا عما تسألين عنه . اذا وجه اليك وكيل النيابة أى سؤال .. ودعى الباقى لى .

وظلت نصف ساعة بعد انصرافه تبكى فرحا كيف خطر لها أن تعترف بالحقيقة فتقتل حب أليك لها . محال . ستصر على الانكار .

* * *

لم تمض أيام حتى عاد فيكتور ستول من لندن . حاملا معه أمر تعيينه قاضيا لمحكمة الجنايات العليا . فى المنصب الذى احتفظ به والده حتى بعد ترقيته الى منصب « قاضى القضاة » والذى ظل له حتى استعفى من العمل . فلم يشغله بعده أحد . بل تولاه القاضى توبمان مؤقتا . كعمل اضافى .

وتلقت الجزيرة القاضى الجديد ـ ابن القاضى الراحل فى ترحاب كبير .. وتكأكأ القوم حول دار المحكمة فى اليوم التالى حيث أقيم الاحتفال ليتلقى الحاكم قسم القاضى الجديد .

وأقسم ستول على انه يرعى القانون .. وان يتجرد فى تحقيق العدالة من اية عاطفة تؤثر على ضميره .. ولكنه كان كالذاهل لا يكاد يحس بغير عينى أبيه وقد تبدتا فى الصورة وكأنما دبت فيهما الحياة .. وراحت نظراتهما تقولان له :

ـ هأنتذا الآخر تنحو على سنة أسرتك .. فيجب أن تتبع الحق منذ الآن مهما كلفك ذلك من ثمن .. انك لم تعد وحدك الآن .. بل أن أرواح أجدادك قد اندمجت الآن فى روحك .. فلا تنظر لنفسك فقط بعد الآن .. يجب أن تكون عادلا مستقيما .. والا فانسحب !

* * *

فى ذلك المساء .. وبعد أن انتهت المأدبة الكبرى التى اقامها ستول بمناسبة تعيينه .. أوى الى حجرة المكتبة بقصر بالاموار .. كان الكون ساكنا .. واحس ببرودة تسرى فى بدنه دون ثمة مبرر .. وداخله شعور بان روحا غامضة تحوم فى جو الحجرة .

ووقعت عيناه على ملف احضره السكرتير الذى يعاونه فى المحكمة « يوشع سكارف » ليفحصه .. كان ملف أولى القضايا التى ستعرض عليه .. وطوت يده غلاف الملف .. فقرأ فى أول صفحة .

« اتهمت اليزابيث كورتين ـ الشهيرة ببيسى كوليستر ـ بانها فى يوم ٥ أبريل أو حواليه .. وفى مقاطعة بالوه .. بجزيرة مان .. أقدمت بمحض ارادتها .. ومع سبق العزم وسوء النية ... على قتل طفل ذكر .. مخالفة بذلك

www.liilas.com

القانون .. والأمن الذى ينشره مولانا الملك »

وانبسطت أمام عينيه غشاوة .. فلم يستطع المضى فى القراءة .. وبدت له الحياة تتسرب من جسده فى اندفاع وأحس بالحجرة تدور .. ثم أظلمت الدنيا ولم يعد يشعر بشىء .

القسم الرابع

الفصل الاول
شقوة الآثم

فى الصباح التالى .. نشرت صحف الجزيرة ان القاضى الجديد .. أصيب بنوبة مفاجئة عقب عودته من حفلة القسم فى المحكمة .. وقرر الدكتور كلوكاس ـ الطبيب الشرعى وطبيب الأسرة ـ أن على ستول أن يلزم فراشه ثلاثة أيام على الاقل .. ولكن أفكاره لم تترك له سبيلا الى الراحة .. اذن .. فهذه هى القضية التى كتبت له عنها فينيلا وهو فى لندن ؟ ..

كيف لم يخطر له هذا ببال من قبل ؟ لقد تناسى فى غمرة الفرح والسعادة خطيئته .. فما لبثت أن دهمته كصاعقة عادة قاسية .

وما كان لديه شك فى ادانة بيسى .. ولكن .. اليس هو شريكها فى الجريمة ؟ وكيف اذن يكون القاضى الذى ينظر قضيتها ؟ كيف يحاكمها .. ويوجه اليها أسئلته ويصدر حكمه عليها ؟ وهاجمه خوف مروع عض قلبه بانياب حادة . انها لن تكون جريمة ضد العدالة بل .. انه يأثم فى حق الله ايضا بموقفه هذا .

وعندما زاره سكرتيره يوشع سكارف .. بعد ظهر اليوم التالى .. طلب اليه أن يرجو القاضى توبمان .. أن يتولى هذه المحاكمة .. متعللا بان المرض يحول بينه وبين مغادرة فراشه .

ولكن الأقدار كانت تأبى الا أن يسير وفق ماشاءت له .. فقد زارته مسز كوليستر وراحت تذرف دموعها متوسلة اليه أن يعمل على انقاذ ابنتها . فلما صاح يذكرها أنه ليس من حقها أن ترجوه فى أمر كهذا يتنافى مع مبادئه كقاض .. تطلعت اليه المسكينة وفى عينيها الدامعتين نظرة استرحام .. وشعر ان قلبه يذوب أسى .. ولم يعد يستطيع احتمالا . ولكنه تجلد وذكر لها انه رجا توبمان أن ينظر القضية .. وسيسأله أن يراعى ظروف السجينة .. فانصرفت الأم الحزينة ولسانها يلهج بشكره .. ودعواتها تتصاعد الى السماء .

فلما خلا الى نفسه تساءل : أى خرق للعدالة فى أن يربط بحياة هذه البائسة . حياة ابنتها المعذبة ! ؟ .

وفى اليوم التالى . اقبل اليك جيل الى قصر بالامواز .. فما أن حيا صديقه حتى صاح : معذرة اذا كنت لم أزرك قبل اليوم . فانت تعرف اننى مشغول فى قضية بيسى .. ابدا لن أستطيع أن اصدق ما يتهمونها به ، ولقد قابلتها واتفقت معها على كل شىء . استعداد لكى أتولى الدفاع عنها . انها بريئة .. وسأجاهد ما وسعنى لا ثبت براءتها ولكننى سمعت انك اعتذرت عن النظر فى هذه القضية فسارعت اليك . فان توبمان اذا نظرها لن يدع سبيلا الى انقاذ الفتاة المسكينة .

كان توبمان مشهورا بقسوته وصرامته فى سبيل الحق . ولا سيما على تلك البائسات اللاتى تدفعهن الاقدار الى الزلل

www.liilas.com

ولذا فلن ينتظر منه اى عطف على بيسى .

وعاد جيل يقول : أعرف انه ليس من حقى ان اسالك ان تتولى بنفسك محاكمة بيسى .. ولكنك أعز أصدقائى .

وشعر ستول انه يوشك أن يهوى الى أعماق سحيقة . واطرق برهة يقاوم السر الذى فى أعماقه من أن ينبعث على لسانه ثم قال :

ـ أظنها ستنكر التهمة . فهل تراها ستصر على ذلك ؟

ـ بلا ريب . ولم لا ؟ . انها بريئة . وقد وعدتنى .

ـ حسنا . اذا لم استطع أن أراس المحاكمة . فلا اقل من أن أعدك . أن أجلس الى جانب توبمان فيها .

وعندما انصرف جيل . عاد ستول الى افكاره .. لقد عرف الآن لماذا أصرت بيسى على تأجيل الزواج من جيل . كانت تخشى أن يكون مصيرها كمصير زوجة البحار التى خدعت زوجها فقتلها . انها تنكر جريمتها حتى أمام جيل . ولكن ماذا يحدث اذ ضللها توبمان باسئلته الدقيقة ؟ . لا . لا ينبغى أن يسمح بذلك .

ولجأ ستول الى المكتبة بعد أن ودع صديقه . فغرق فى خواطره يبحث عن مخرج يرضى ضميره كقاض . و .. كشريك فى الاثم .. ولكن دان بالدروما ما لبث أن اقتحم عليه الحجرة . رغم محاولة الخدم التصدى له .

لقد لطخ الحادث شرفه بالوحل .. ومع أن ابن رئيس النواب هو الجانى الذى قاد الفتاة ـ كما كان يعتقد ـ الى الهوة التى انحدرت اليها .. فان مستر أرشيبالد جيل لا يتورع عن انذاره بأنه لن يجدد عقد ايجار مزرعة بالدروما ويهدده بالطرد منها.

وسأله ستول أخيرا : ولكن .. ما الذى تريده منى ؟

ـ أن تبرىء الفتاة حتى تنقذ سمعتى واسمى .

ـ حتى اذا كانت مدانة ؟

ـ انك صديق الرجل الذى غرر بها . فعليك انقاذها .

ـ اذن . فانت تسألنى أن اخون قسمى ! .

ولكن الرجل ظن انه بالغ ماربه بالتهديد والصخب . مما اثار غضب ستول فصاح يطرده فلما تمادى . أمر ستول خدمه . فألقوا بالرجل الى عرض الطريق .

وصحت عزيمة ستول بعد هذا على أن لا ينظر قضية بيسى مهما كلفه ذلك .. ومهما كانت المغريات التى تدفعه .

بيد انه تلقى بعد ظهر اليوم رسالة من الحاكم يذكرانه اجل انعقاد المحكمة أياما ثلاثة حتى يتمالك ستول صحته ويراس الجلسة . ثم جاءت فينيلا تتوسل اليه ان لا يدع السجينة المسكينة لقسوة القاضى توبمان . فقال وهو يحاورها :

ـ ولكنها مذنبة .

ـ حقا .. ولكن ثمة من هو اكبر منها ذنبا .. الرجل الذى خدعها . !

وصمت ستول . ولكنه شعر بالدماء تفر من عروقه بيد انه ما لبث ان تمالك نفسه وقال : ولكن ليس فى الوسع محاكمة الرجل .

ـ بل يمكن اذا كان طرفا فى الجريمة . ان الفتاة ما كانت لتقدم على كل مااتهمت به لو لم يكن هناك من يساعدها .. ومن يفعل ذلك غير الرجل الذى يرى من مصلحته أن يخفى خطيئته بانقاذ ضحيته ؟ ..

وحاول ان يسفه هذه الفكرة ولكنها فاجأته بانها تسعى حثيثا الى كشف شخصية هذا الرجل .. وقد علمت اخيرا ان الفتاة كانت طيلة الشهور التى غابتها عن بيت امها تعيش لدى آنستين فى ديربى هافن .

ونكس ستول راسه .. وود لو يفر من الحجرة . بينما استطردت : ان الفتاة تتستر على رجلها .. ولكنى ارجو ان

www.liilas.com

أعرفه .. وكم أود ان أشهر به .. وأن أجعله يلقى نصيبه من العقاب .

واحس بعد انصراف فينيلا بجبن لم يستشعره من نفسه يوما من قبل . لقد ود لو يعترف لفينيلا بكل شيء . ولكنه ارتد وهو يخشى أن يجرح حبها له جرحا لا التئام له .. وكم روعه أن فينيلا تسعى وراء الآثم وهى لا تعرف أنه هو ذلك الآثم ..! يالله .. المرأة التى أحبها .. والتى تحبه تسعى لتحطيمه ..!

وهتف فى أنين : رحماك يالله ..! شفقة بآثم مخطىء !

وهداه تفكيره الى أن يسعى الى الحاكم فيقص عليه الأمر كله ..

الفصل الثانى

« المحاكمة »

قال ستول : أتذكر ياسيدى القصة التى أفضيت اليك بها عن صديق لى وعد فتاة بالزواج . ثم وقع فى حب غيرها ..

فتطلع الحاكم اليه ثم قال : أجل .. فماذا جد . ؟

ـ لقد كانت قصتى أنا .

وسادت فترة صمت رهيب .. بينما حول الحاكم وجهه نحو الموقد .. وعض على غليونه باسنانه .. وعاد ستول يقول :

ـ لقد نصحتنى أن أتحلل من وعدى .. ففعلت وصادف هذا هوى من الفتاة .. لأنها كانت فى تلك الأثناء قد وقعت فى حب صديقى جيل ..

ـ يالحسن الحظ .. !

ـ هكذا لاح لى أولا .. ولكن القدر يابى الا ان يعاكسنى فقد ارتكبت الفتاة جريمة .. وهى الآن فى سجن كاسل

روشن .. وسيكون من واجبى أن اتولى محاكمتها .

ـ أهى تلك الفتاة ابنة كوليستر .. ؟

وسادت فترة صمت أخرى . راح الحاكم خلالها يجذب دخان غليونه فى سرعة . ثم قال ستول : ولكن . ليس هذا كل شيء ، فأنا أخشى أن تؤثر هذه الظروف على ضميرى كقاض .. رغبتى فى انقاذ الفتاة .. شفقتى على أمها المسكينة . صداقتى لجيل . ثم موقف زوج أمها منى . لهذا رأيت أن من المحال أن أتولى محاكمتها .

ـ ولكن توبمان مريض ولا يستطيع أن ينوب عنك .

وناضل ستول فى عنف ليكتم مشاعره المتضاربة . وتصبب العرق باردا من جبينه . على أن الحاكم لم يكن فى موقف أهون من موقفه . كان يتساءل فى نفسه عن أثر كل هذا على فينيلا . وزواجها . وسعادتها . ونهض من مكانه فمضى يذرع الحجرة . ثم لم يلبث ان وقف أمام ستول قائلا : الواقع اننى كنت أشعر دائما انها قصتك . ولكننى لم أكن اعلم مدى تطورها ولكن . هل تعرف ان الفتاة قتلت طفلها ؟ .

ـ لست متأكدا . فهى تنكر . وأدلة الاثبات ليست قاطعة .

ـ فهل كنت تعرف انها وضعت طفلا ؟ .

ـ كلا . وهى تنكر هذا أيضا . وان كذبها الفحص الطبى .

ـ والآن .. هل أنت على ثقة أنها اذا كانت قد وضعت طفلا . فان هذا الطفل ابنك ؟

ولهث ستول . ولكنه أجاب : كلا .. لا أظن .

ـ عجبا . فما الذى يدعوك الى القلق . انك لا تعرف شيئا . فكيف تخشى ان تؤثر معلوماتك الخاصة على حكمك ونزاهتك . انك تظلم الفتاة اذ تقر ادانتها فى ذهنك قبل

www.liilas.com
www.alkottob.com

ان تحاكمها . كما انك تظلم نفسك . اذ تحملها تبعة جريمة الفتاة اذا كانت أجرمت .

ـ لقد أسأت اليها منذ اول لحظة ياسيدى .

ـ ولكن هذا لا يقاس الى جانب الجرم الذى ارتكبته هى بعد ذلك .. انك بلا ريب لا تقر جرمها ؟ فاى حماقة تدعوك الى الاعتقاد انك المسئول عن قتلها طفلها ؟

وشعر ستول بكلمات الحاكم تنفذ الى أعماقه . واحس انه أمام قوة قاهرة تخضعه دون أن يحاول المقاومة . وداخله شىء من الارتياح حين هم بالانصراف ولكنه تذكر امرا خفق له قلبه .. فتردد برهة ثم قال : ولكن .. هناك فينيلا ايضا .

واخبره عن سعيها لكشف شخصية شريك الفتاة فى الاثم .. فصاح الحاكم :

ـ ياصديقى .. كيف ترجو أن تعبر الجسر وانت لم تصل الى النهر بعد ؟ حذار ان تذكر لها شيئا عن الموضوع او عن حديثنا هذا .. ولا تجعل أى فتاة ترى فيك شخصا احمق غبيا .

* * *

بيد ان كلّ يوم كان يحمل له صدمة جديدة . فقد جاءته فينيلا تذكر فى اليوم التالى .. ان المعلومات التى وفقت اليها من الآنستين براون ـ اللتين كانت بيسى تقيم فى بيتهما ـ تنم كلها عن أن شريك بيسى فى خطيئتها ليس غير ..

واصفر وجه فيكتور .. وارتجفت أوصاله .. وكاد قلبه يكف عن الحركة .. ولكن الفتاة فى اللحظة التالية .. ذكرت اسم « اليك جيل » على انه الشريك المزعوم !

وحاول ان ينبهها الى خطئها .. ولكنها عزت ذلك الى اخلاصه لصديقه .. وأصرت على التمسك بما قادتها اليه مباحثها .

ولكن ... الا تعرف يا فيكتور ان القوم يقولون ان مرضك ليس غير اشاعة ، لانك رؤيت اليوم فى مكتب أبى .. وهم يعزون رغبتك فى عدم نظر القضية الى محاولة التنحى عن واجبك لانقاذ صديقك من الفضيحة على يديك .. هكذا يشيع دان بالدروما.

ووجد المسكين نفسه فى حيرة .. وفكر رغم نصح الحاكم فى أن يعترف لها ... ولكنه ما لبث ان شعر أن اشاعة بالدروما تدعوه الى أن يرتضى مرغما الجلوس على مقعد القضاء فى محاكمة بيسى ، حتى يكذب هذه الاشاعة الظالمة . وعندما سمع فينيلا تسأله أن يعدها ان يفعل ذلك انقاذا للفتاة المسكينة من وطأة القاضى توبمان .. وجد نفسه بعدها فى غير وعى .

* * *

وحان يوم المحاكمة .. كانت المحكمة قد اكتظت بالاهالى قبل الموعد بساعة ، وقد أقبلوا من كل فج فى الجزيرة يشهدون القضية .

وفى تمام الساعة الحادية عشرة .. نفذت هيئة المحكمة الى قاعة الجلسة .. كان ستول يبدو شاحب الوجه خائر القوى .. وكانما زادت سنه أعواما طويلة حتى لقد اشفق عليه الحضور .

ووقفت بيسى فى قفص الاتهام .. وجلس جيل خلفها والى جواره فينيلا .

وسادت لحظة صمت .. وانتظر القوم أن يتكلم القاضى ولكنه ظل صامتا .. كان يبدو كرجل يعانى صراعا حامى الوطيس فى أعماقه .. ولكنه فى اللحظة التالية .. بدا فى صوت خافت وهو يجاهد ليتمالك أعصابه .. يقرأ قرار الاتهام .. بينما كانت بيسى تقف مستوية .. وقد طرحت رأسها الى الخلف ، واستقرت عليها انظار الحضور .

www.liilas.com
www.alkottob.com

وسألها القاضى أخيرا : مذنبة أم غير مذنبة ؟ .
فاجابت فى ثبات . غير مذنبة ! ..
وتهامس الحضور :
ـ يا للفتحة ! . كان يجب أن تخجل من موقفها على الاقل فلا تبدو فى هذا الثبات !

* * *

لم يشعر ستول بما اضطرم فى نفسه ، الا بعد أن استقر على مقعده فى قاعة المحاكمات ، ورأى بيسى أمامه شاحبة الوجه ، بادية الاعياء من أثر المرض الذى زادها كبرا حتى تراءت كامرأة فى الأربعين من عمرها .. وكاد يتناسى مركزه كقاضى ، وخفق قلبه أسى ولوعة .. يا للمسكينة !. وياله من وحش قاس !. وجال بعينيه فى القاعة .. كانت أنظار القوم موجهه اليها ... واليه ! . ووقعت عيناه على فينيلا وجيل فسرت فى جسده قشعريرة باردة ، وخيل اليه أنه هو المتهم وان بيسى وفينيلا وجيل هم قضاته .

ووقف ممثل النيابة يترافع محاولا اثبات التهمة على الفتاة فى قسوة ، مطالبا بعدم السماح للشفقة أو الرحمة أن تاخذ طريقها الى قلب القاضى أو قلوب المحلفين ، حتى تكون المتهمة أمثولة لأولئك المستهترات اللائى يتهاوين الى أحضان الاثم ويستسلمن الى الخطيئة ، ثم يقتلن الثمرة البريئة فى غير ماخوف .

كان يسود المحكمة جو رهيب من الصمت خلال مرافعة وكيل النيابة . فلما انتهت سرت الهمسات ضد الفتاة !. وأبصر ستول بيسى جامدة فى مكانها . دون أن تتأثر ، ولكن فينيلا كانت بادية الغضب .. وكانت شفتا جيل ترتجفان ، وازداد الصراع فى أعماق ستول حدة وعنفا . يجب أن ينقذ الفتاة مهما كلفه الأمر .

واستدعى شهود الاثبات . فاقر الكونستابل كين أنه عثر بنفسه ـ أثر بلاغ قدم اليه ـ على جثة الطفل الوليد فارسلها الى الطبيب الشرعى . ثم حقق مع ويل سكيليكورن وزوجه ـ مقدما البلاغ ـ فاذا هما يتهمان السجينة .. وبعد ان فتش بيوت المنطقة كلها كأمر رئيسه . قصد الى مزرعة بالدروما . فوجد الفتاة مريضة طريحة الفراش . فانتظر حتى تمالكت قواها واعتقلها .

ونهض جيل فى انفعال ظاهر فسأله : ما المسافة بين بيت السجينة « وصخرة القتيل » التى وجد الطفل عندها ؟ . وما نوع الطريق ؟

ـ نصف ميل تقريبا .. والطريق اليها وعرة قاسية .

فجلس وفى عينيه نظرة ارتياح .. ومال القاضى الى الأمام فسأله :

ـ ألم تفتش البيوت الواقعة خلف حدود المنطقة ياكونستابل ؟

ـ كلا يا صاحب السعادة .

ـ وكم يبعد أقرب بيت فى المنطقة المجاورة عن حدود منطقتك ؟

ـ حوالى الاربعمائة ياردة عن الوادى .

ـ اذن أما كان يجدر أن تؤمر بتفتيش هذه المنازل . بدلا من أن تفتش البيت الذى يبعد عن الوادى بنصف ميل ؟ .

وأمسك النظارة بانفاسهم ، واضطجعت فينيلا فى مقعدها وابتسم جيل ، وفى الحظة التالية تقدم الطبيب الشرعى للشهادة . لقد طبق المبادىء الطبية على جثة الطفل فتبين انه مات بالاختناق بعد أن ولد حيا .. ثم استدعى فى اليوم التالى لعيادة السجينة فى بيتها فوجدها فى حالة أعياء مألوفة لدى النساء بعد الوضع ..

www.liilas.com
www.alkottob.com

وسأل جيـــل : كم عاش الطفل ؟ وكم كان مضى على موته

ـ عاش ســاعة أو اثنتين .. وكان قد انقضى على موته ست وثلاثون ساعة .

ـ وهل فى اســتطاعة امراة بعد اربع وعشرين أو ســت وثلاثين ساعة من الوضع أن تسير نصف ميل فى طريق وعرة شاقة ؟ .

ـ كلا بالتأكيد يا سيدى .

وجلس جيل وهو يبتســم فى فوز .. ومال القاضى الى الأمام وقال :

ـ هــل المبادىء الطبية التى طبقتها . يمــكن الــوثوق بها دواما ؟

ـ كلا ياسيدى ، فقد عرفت حالات اخفقت فيها .

ـ اذن فقد يحتمل أن يتنفس الطفل قبل أن ينفصل عن احشاء أمه ثم يختنق اثناء الوضع ؟ .

ـ يحتمل يا صاحب السعادة .

وأومضت عينا فينيلا . وبدأ التحمس على وجه جيل .

وتقدمت بريد جيت سكيليكورن للشهادة ، فقالت أنها رأت الفتاة لدى الصخرة حوالى الفجر . فسألها جيل : انك وزوجك تســتأجران جزءا من مزرعة زوج أم الفتاة . وقد جاء فى محضر التحقيق أنكما كنتما على علاقات سيئة بهذا الرجل .

ـ أجل .. وما فى ذلك . ؟

ـ ألم يهددكما بطردكما من الأرض فقلت له لن تبرحيها حتى تريه يبارحها قبلك ؟

ـ أجل .. واذا لم يطرده ابوك . رئيس النواب ..

ونهض وكيل النيابة قائلا : أيرمى الــدفاع من وراء هذا الى القول أن صاحبى البلاغ إنما تآمرا ضد زوج أم المتهمة؟.

ـ هو هذا تماما .

وســأل القاضى الشــاهدة : ان بيتك يبعد عن الصخرة بخمسمائة ياردة . فهــل لك من حدة البصر ما يمــكنك من النظر على مثل هذه المسافة ؟ .

ثم أوقف الكونستابل كين بين زميلين له فى طرف قاعة المحكمة وسألها : أيهم كين ..

فاخطأته واذ ذاك انفجر الحضور ضاحكين .

وتلاها زوجها فى الشهادة . فلما انتهى سأله جيل :

ـ ماذا كانت المتهمة تفعل حين رأيتها فى الطريق ؟ .

ـ كانت تغطى وجهها بيديها ..

اذن فأنت لم تر وجهها .

واعقبه فى الشهاده طبيب مستشفى السجن .

فذكر انه شاءأن يفحص المتهمة عندما اقتيدت الى المستشفى وكان قد مضى على وضــع الطفل خمسة أيام .. ولــكنها أصرت على أن ترفض السماح له بفحصها .. وهددته ..

ثم :

ـ حدث ان فقدت وعيها بعد ذلك ..

وصاح القاضى : انتظر ..

ثم سأل وكيل النيابة عما اذا كان المحقق قد امر بفحص المتهمة طبيا .. فهز النائب راســه سلبا .. فعاد القاضى يقول للطبيب : أتعرف أن الطبيب الذى يفحص امراة دون رغبتهــا .. ودون أمر من المحقق يعــرض نفســه لأقسى العقوبات .. ؟

وأمســك الحضور بانفاسهم .. وتهامسوا فى خفوت ان القاضى يبدوا مصرا على انقاذ السجينة .

ـ أجل ياسيدى ..

ـ اذن فلم تفحصها لذلك ... ؟

ـ كلا ..

www.liilas.com
www.alkottob.com

وقام وكيل النيابة يسأل الشاهدة : انك من المتدينات وقف للدفاع فطالب باطلاق سراح الفتاة .. اذ لم يعد ثمة ما يعرض على المحلفين بعد ما ظهر من تضارب أقوال الشهود على انه زيادة فى اقناع المحكمة ببراءة المتهمة وطهرها .. يرجو ان تستمع المحكمة لشهود النفى .. فهمس ستول لنفسه « يا له من أحمق ..! » وحانت منه التفاتة خلفه .. فرأى صورة أبيه وقد كتب تحتها .. « العدالة أقدس شىء على الأرض » .. فنكس رأسه خجلا وأسى .. !

واستدعى جيل مسز كوليستر للشهادة .. فتقدمت ووجها مندى بالدموع .. ولم يجرؤ ستول ان ينظر اليها ولكنه أدرك من لهجتها انها تقول مالا يطاوعها ضميرها على المضى فيه ..

وسألها جيل : هل كنت ترينها ليلا ونهارا عندما عادت الى بيتك ؟

ـ أجل ياسيدى ..

ـ وهل علمت شيئا ينقض زعم ابنتك انها لم يكن لها يوما طفل .. وانها لذلك لم تقتل أحدا .. ؟

ـ كلا ياسيدى طبعا .. لقد كانت بيسى فتاة طيبة دائما ..

ـ أحقا كان زوجك قاسيا على الفتاة ؟ . لا تترددى ولا تخافى وتذكرى ان حرية ابنتك رهينة بكلماتك ؟

وتلفتت المرأة حولها فى جزع .. ثم راحت تقص ما فعله زوجها حين طرد الفتاة من البيت .. وأغلق الباب دونها فى منتصف الليل .

وصاح دان كوليستر من أقصى القاعة : انها أكذوبة شنيعة! .

فطالبه القاضى بالصمت .. حتى اذا استمر فى ثورته .. أمر بزجه فى السجن الاحتياطى « التخشيبة » الى انتهاء المحاكمة .

وفى الطريق الى سجنها . استطاعت ان تعرف من اللاتى يحضرن الصلاة فى الكنيسة دائما.. واللاتى يعرفن ان الصدق مقدس .. والكذب شر مقيت .. فهل تقسمين انك لم تلحظى من النظرة الأولى التى ألقيتها على ابنتك يوم عودتها .. انها فى طريقها الى الأمومة ؟

فأجفلت العجوز وارتجفت .. وحاولت أن تتكلم .. ولكنها صمتت وأغلقت عينيها .. ثم ترنحت .. وصاح القاضى يأمر أحد الضباط أن يسند المرأة ويصحبها الى الخارج .. بينما وقف جيل يحتج على الصيغة التى وضع وكيل النيابة سؤاله فيها .. فمس مشاعر الأم ..

وفى تلك اللحظة .. ولج القاعة الكونستابل كين حاملا لفافة وضعها أمام وكيل النيابة . وكان جيل يتحفز كما لو كانت الفرصة قد حانت ليوجه الضربة القاضية .. فارتجف ستول .. وانتقلت بيسى فى خطى ثابتة .. من قفص الاتهام الى قفص الشهود .. ومضت تجيب على أسئلة جيل بانكار التهمة الموجهة اليها .. والاصرار على براءتها فى تحد واضح.

وما لبث أن قال لها وكيل النيابة : هل تصرين على الانكار ؟ فكرى جيدا .. هل تصرين على انك لم تضعى .. ومن ثم لم تقتلى أو تدفنى طفلا ؟

ـ بكل تأكيد .

فامر وكيل النيابة الكونستابل ان يفتح اللفافة التى كان يحملها بينما كان القاضى يهتز فرقا .. وجيل يرتعش انفعالا .. وفينيلا تتنفس فى عسر وعنف .. لم يك ثمة من بقى رابضا ثابت الجنان غير المتهمة .. وتناول النائب قطعة من وشاح أبيض وقال :

ـ أتعرفين ما هذه ؟

وأجفلت بيسى كما لو تراءى لها شبح مروع ثم تمالكت جأشها ، وتذكرت وصايا جيل لها ، فاجابت : لا أعرف عنها شيئا .

www.liilas.com
www.alkottob.com

فتناول النائب قطعة أخرى ، كان ظاهرا انها بقية الوشاح وسألها :

– أذن ، فهل تعرفين شيئا عن هذه ؟

ولهثت .. ولكنها تجالدت وقالت : لا أعرف عنها شيئا

وتذكرت فجأة الشيء الذى عثر عليه الكونستابل فى حجرتها ، فشاء أن يأخذه ورأت ألا سبيل الى التمادى فى الانكار فقالت :

– آه .. لقد تذكرت .. لقد وجدته فى الطريق اثناء عودتى الى بالدروما .. فربطته حول قبعتى كى لا تحملها الريح .

– ولكنه يحمل اسم « بيسى » مطرزا على أحد أركانه .

وأفحمت برهة .. ثم قالت : ان اسم « بيسى » مالوف منتشر .

– ولكن .. كيف حدث أن هاتين القطعتين وجدتا فى مكانين مختلفين ؟

ومادت الأرض بالفتاة ولكنها قالت : لا أعرف شيئا .

وتنفس القاضى فى صعوبة بينما ذكر النائب ان الجزء الثانى من الوشاح وجد فى حجرة المتهمة .. بينما كان الطفل القتيل ملتفا فى الجزء الأول .. ونهض جيل فجأة وقد عرف الوشاح الذى أهداه يوما لبيسى .. وفى صوت أجش راح يساءل المتهمة أن تفكر جيدا .. وأن تتذكر كل شيء عن الوشاح .. وتلعثمت الفتاة .. وحملقت بعينين تراءتا كعينى حيوان وقع فى الشرك .. ثم انفجرت باكية وهى تكرر انها لا تعرف شيئا . وتهالك جيل فى مقعده .. ودقت ساعة المحكمة فخال القاضى ان دقاتها تنصب على رأسه كمطارق ثقيلة .. وما لبث أن أمر بتأجيل الجلسة الى صباح اليوم التالى .. راغبا فى أن يعطى المتهمة وقتا للتذكر والتفكير قائلا فى صوت واهن مرتجف : وكيفما كانت الظروف

فى هذه القضية التعسة .. فاننى أومى المتهمة دائما بالصدق والصدق الصريح فهذا خير لها .

وتكرم الحاكم – الذى كان يجلس صامتا الى جانب القاضى طيلة المحاكمة – فسمح لمحامى المتهمة ان يزورها فى السجن .

الفصل الثالث
كلمة القضاء

كان جيل آخر من غادر القاعة . سائرا فى خطى وئيدة واهنة . وقد احمرت عيناه كشخص محموم .. والتقت به فينيلا لدى الباب . فذاب قلبها اشفاقا عليه . وسألته :

– هل ستذهب للقائها ؟ .

ولكنه قال فى اعياء : لن أستطيع . ولكن هلا ذهبت أنت؟ وقبلت . فشكرها وتحول يواصل سيره . فاذا به يتقابل مع ستول وهو يخلف المحكمة . فقال له لقد كنت رءوفا بها ياصديقى العزيز فشكرا لك . اننى لن أستطيع لقاءها . وقد أوفدت عنى فينيلا ! .

وبهت ستول . وخيل اليه أن خنجرا حادا يمزق فؤاده .. فينيلا وبيسى . والسر الدفين المروع .! وداهمه عى أعجز لسانه عن الكلام . لسوف تعترف بيسى لفينيلا بكل شيء . وان فينيلا لتود لو تفضح ذلك الآثم الذى شارك الفتاة فى خطيئتها . فأى صدمة له ولفينيلا أيضا ؟ لسوف تتحطم ثقتها فيه .

وتحول ستول منصرفا وقد غشيت بصره غشاوة . فراح يتخبط ولا يكاد يرى ما أمامه .

***

كانت بيسى كارهة اول الأمر لوجود فينيلا معها . فراحت

www.liilas.com
www.alkottob.com

تشيح عنها وهى تبكى وقد أرهقت المرحلة الاخيرة من المحاكمة أعصابها ·· ولكن فينيلا راحت تسبغ عليهـــا من العطف ألوانا · وتنصحها أن تقول الحق · فربما استمالت باعترافها المحلفين والقاضى فيترفقون بها ·· ويخففون ما وســـعهم جزاءها ·· واستلانت لهجتها بيسى · فركعت الى جوارها · وصاحت :

ـ حسنا · سأعترف · لقد وضعت طفلا حقا · ولقد قتلته ولكننى لم أتعمد قتله والله شهيد على قولى ·

وطفقت تقص على فينيلا كل شىء · دون أن تذكر اسما ما · ولكن فينيلا تملكها الشـــك والريبة حين ذكرت الفتـــاة أن الشخص الذى غرر بهـــا كان يستأجر منزلا فى رامسى · وحاولت أن تحملها على الاعتراف باســمه ولكن الفتاة كانت تتهرب ·

وازداد سلطان الشك على فينيلا فصاحت : هل ·· هـل له علاقة بى ؟

وهبط رأس بيسى على صدرها والتزمت الصمت ، وكررت فينيلا سؤالها وهى ترفـع رأس الفتاة وتحدق فى عينيها · وانفجرت بيسى باكية ·· وفى اللحظة التالية دفنت رأسها فى صدر فينيلا ، واعترفت بأن زميلها فى الاثم ·· ليس غير فيكتور ستول نفسه ! ·

وهزت الصدمة كيان فينيلا · فأفقـــدتها سيطرتها على أعصابها ·· وهاجت فى نفسها عوامل الغيرة تجتذب معهـــا أسباب المقت والكراهية ·· ودفعت عنها الفتاة فى حقـــد وعنف ·· لقد تحطمت آمالها · لقد ضاع حبها ·· ولكنهـــا استغرقت فى بكاء مرير ·· وأشفقت عليها بيسى فاذا بهـــا تواسيها وتخفف عنها ، وفى اللحظة التالية · كانت المرأتان متعانقتين وقد امتزجت دموعها فى سيل متواصل ·

وتمالكت بيسى نفسها فاذا بأمل يداخلها ·· لقد اعترفت واذن فلسوف يرأف بها القاضى والمحلفون ويطلقون سراحها · واذ ذاك لن يقسو عليها جيل · بل انه سوف يصفح ويغفر · ومن ثم تبدأ حياتها من جديد · حياة شريفة ، طـــاهرة · سعيدة ! ·

وكان جيل فى انتظار فينيلا فى الخـــارج · فافضت اليه هذه باعتراف الفتاة ·· ولكنها لم تستطع أن تصرح له باسم الآثم الذى غرر بها ·· وصعق جيل لما ســـمعه عن اعتراف بيسى · فما لبث أن تحول ، واندفع كمجنون فى طريق المحطة

بعد ساعة · كان جيل فى قصر بالاموار ، وما رآه ستول حتى أحس لأول مرة فى حياته بالخوف ، ولكنه ما تبين ان الشاب مهدم شارد الذهن زائغ النظرات حتى تجلد وتقدم منه يستقبله ·· وقال جيل : لم أتمالك أن آتى وأخبرك ·· انها مجرمة ، وقد اعترفت ! ·

وراح يئن فى ألم مرير ·· ولكن ستول لم يأبه لشىء قدر اهتمامه بأن يعرف هل أفضت الفتاة باسم زميلها فى الاثم، فما اطمأن الى أن جيل لا يعرفه · حتى تنهـــد فى ارتياح ، وراح يسرى عن صديقه ·· ويدافع عن الفتاة ·

وصاح جيل فى أسى : ولكن ·· لو انها أخبرتنى ·· لو انها كانت صريحة معى ·· !

ثم نهض منصرفا ·· وخلا ستول الى نفسه وهواجسه ·· كم تجعل الخطيئة من الرجل جبانا رعديدا ·· ! ولكن كل شىء لن يلبث أن يتكشف ·· فماذا يكون موقفه ··؟ ثم ان اعتراف الفتاة لا يجعل أمام القاضى مناصا من الحكم عليها ·· واذن فمصير بيسى موقوف عليه ·· وحده ·· !

ولم يعرف المسكين للنوم طعما فى ذلك المساء ·· حتى اذا

www.liilas.com
www.alkottob.com

قصد الى المحكمة فى اليوم التالى ·· كان محطم الاعصاب ·· بادى الارهاق ·· وقد عصفت به فكرة عذبته ·· ماذا يحدث لو أن المتهمة خلال اعترافها ·· اتهمت قاضيها ··؟

***

عندما عقدت الجلسة ·· وقف جيل وأعلن فى صوت خافت واهن ان المتهمة قد اعترفت بجرمها ·· وكان لا بد أن تقص كل شىء ·· ولكنها كانت سادرة فى بكاء ونشيج ·· فتطوعت فينيلا كى تتولى عنها سرد قصتها ··

وسألها جيل عندما انتهت :

ـ هل قالت المتهمة أنها قتلت طفلها دون عمد أو ادراك منها لما فعلت ··؟

ـ أجل ·· كان ذلك تحت تأثير الخوف من زوج أمها ·· ولقد أقدمت على كل ما فعلت بدافع من مشاعر نبيلة ··

فسألها وكيل النيابة أن تفسر ذلك ·· فترددت برهة ·· ونظرت الى القاضى ·· ثم اندفعت فى حديث حار سريع : لقد خدعت الفتاة فى أشد أوقات المحنة ·· بوساطة الرجل الذى كانت تتوقع أن يحميها ·· ثم وقعت فى حب رجل شاء أن يتزوجها ·· فارتكبت جريمتها لا لشىء الا لكى تتستر على اثمها وخطيئتها حتى لا تدنس شرفه ·· ان تبعة الخطيئة لا يجب أن تقع الا على عاتق الرجل الذى لا يبعد كثيرا عن المتهمة الآن ·· والذى يجلس فى غمرة الخجل والعار ·· ألا تعسا له ·· فلينقذ الله كل رجل طيب النفس من أن يكون صديقا له، وليعش طيلة العمر ··

وقطع حديثها صرخة انبعثت من جيل الذى وقف والشرر ينبعث من عينيه ·· يحاول أن يتكلم دون أن يستطيع ·· وبعد أن نقل بصره بين فينيلا والقاضى ·· تهالك فى مقعده ·

وما لبث ان تهالكت فينيلا فى مجلسها هى الاخرى وقد هالها ما قالته فى ثورتها العاطفية ·

وسادت فترة صمت ·· ولاحظ الحضور ان القاضى ظل طيلة الوقت صامتا ·· ثم ما لبث أن نهض ·· وفى مجهود ظاهر ·· وجه حديثه الى المحلفين فى صوت منخفض متقطع:

«لقد سمعتم كل شىء ·· وعرفتم ظروف المتهمة التعسة ·· ولكن المحكمة لا تملك ·· وقد اعترفت المتهمة ·· الا أن تطبق القانون بحذافيره ·· ولكن ضميرى كقاض لن يرتاح اذا لم أصرح ان المحكمة تقدر تماما البواعث المادية والمعنوية التى حملت الفتاة على ارتكاب الجريمة ·· ان القانون صريح فى نصه على العقوبة التى يجب أن يتلقاها أى قاتل ·· وقد يكون القانون قاسيا ·· ولكن ليس فى وسع القاضى الا أن يتقيد به ولكن للمحلفين من الحقوق ما ليس للقاضى · فهم اذا رأوا ـ على ضوء الضمير والحق الالهى ـ ان ظروف المتهمة تشفع لها ·· كان فى وسعهم أن يلتمسوا لها من صاحب التاج ·· الرحمة »

وتهالك فى مقعده مرهقا منهوكا ·· وما لبثت الجلسة ان رفعت للمداولة ·· وخرج جيل الى الفناء يحوم كالمجنون ·· كان تصريح فينيلا كصاعقة انقضت على رأسه ·· يالله · ! من كان يتوقع ان ستول وبيسى قد اتفقا على خداعه بكتمان زلتهما · ؟ ولكن حقده ما لبث أن انصب كله على ستول ·· لقد حاولت بيسى بقتلها ثمرة الخطيئة ·· أن تمسح عنها كل ما قد يمس شرفه اذا تزوجها · ولقد أعلنت فينيلا انها ما أقدمت على جريمتها الا لأنها تحبه !

وثارت نفسه ·· وتملكته فكرة جنونية لأن يقتل ستول· وجلست فينيلا مع بيسى تواسيها وترفه عنها ·· كانت

www.liilas.com

الفتاة ثائرة بدورها .. ألم تعدها فينيلا انهـــا اذا اعترفت فان القاضى قد يخفف عنها العقوبة . ؟ فطمأنتها فينيلا الى ان هذا من حق المحلفين . وهم ولا بد مشفقون عليها .. ومن ثم تحولت ترجو لو أن جيل يصفح عنها بعـــد ذلك . ومرة أخرى . طمأنتها فينيلا الى أنه لن يتردد . ما دام يرى انهـا ما فعلت كل هذا الا لأنها تحبه .

أما القاضى فقد كان فى حالة يرثى لهـــا فى حجرته كان يشعر كأن ثمة صواعق صاخبة قاســية تنقض على رأسه . يالله .. أى قســـوة فى أن يحكم بنفسه على الفتاة التى جنى عليهـــا ! . وراح صوت فينيـــلا ولعناتها تتردد فى أذنيه كقصف الرعد .

***

وعادت الجلسة الى الانعقـــاد . ونودى على المحلفين كى يعلنوا قرارهم فاذا هم يرون ان الفتـــاة مدانة .. ولكنهم يلتمسون لها الرحمة والعفو ..

وتطلع ستول الى بيسى . فاذا هى مطأطئة الرأس . تمسك قضبان قفص الاتهام باحدى يديها . وتتشبث بالاخرى بيد فينيلا . وأرسلت اليه نظرة خاطفة أدرك منها انها ما زالت تأمل أن ينقذها . وتولاه شعور غامض رهيب . كذلك الذى يدفع اليائس فى لحظة اليأس الى الانتـــحار . وما لبث أن تحامل ونهض فى اعياء . وساد القاعة صمت رهيب .. بينما نطق فى صوت خافت أجش متحشرج حكمه الذى كان يقضى على المتهمة بالاعدام .. ولكنه وعـــدها فى الوقت نفسه أن يقدم الى الحاكم تقريرا بالتماس المحلفين بالرأفة بها . ليرفعه الى أولى الأمر فى انجلترا . ثم نكس رأســـه . وتتابعت أنفاسه متلاحقة .

وترنحت بيسى وكادت تهوى لولا أن تلقتها ذراع فينيلا .

ونهض أليك جيل فصاح خلف المتهمة وقد سار بها الجنود :
لا تأبهى يا بيسى !. وددت لو كان قاضيك فى موقفك .

وساد الهرج فى القاعة .وفجأة. سمعت صيحة حادة. وتدافع الموظفون . فقد تعثر القاضى وهـــو يغادر القاعة . فسقط على وجهه . ولكنه ما لبث أن تناهض وتبع السجينة ببصره حتى اختفت . وتبـــادل الحضـــور النظرات . وفى نفوسهم شعور مشترك .. شعور بان ما رأوه اليوم لم يكن الا فصلا من مأساة رهيبة ! .

الفصل الرابع
ثمن الخطيئة

ـ يا للسموات .. كيف كان بوسعى أن أتوقع أن تتحول الامور بهذا الشكل ؟ . فينيلا.

كانت تلك صيحة ستول عندما خلا الى الحاكم فى حجرة القاضى بالمحكمة .

فقال الحاكم يسرى عنه: انها لن تلبث أن تعود الى نفسها. فانت تعرف ان أية امرأة لا تقدم قط على أن تدفع عنهـــا سعادتها .. من أجـــل ماضى الشخص الذى ارتضته ليكون زوجها

واستقل ستول سيارته .. متجها نحو جسر الميناء .. وهبت عليه نسائم البحر .. فخففت عن ذهنه .. وبدأ يرى الامور على ضوء أكثر وضوحا .. ماكان بوسعه أن يحكم بغير الحكم الذى نطق به .. والا خالف ضميره كقاض ، وأخل بقسمه .. وحتى لو انه لم يتبوأ مقعد القاضى ، فان عمـــل فينيلا نفسه .. انها هى التى ألقته فى اتون هذا الموقف .. كانت هى السبب الرئيسى فى كل ما حدث .. ولكن ، ألم يكن حبه لفينيلا هو الباعث له على هجران بيسى وتركها ؟ .

www.liilas.com
www.alkottob.com

لو لم يحبها هذا الحب الجارف القاهر لكان قد تزوج بيسى قبل أن يعود جيل الى حياتها .. كم يود لو انها ادركت هذا وقدرته !.

وراح يستعيد ذكريات الماضى .. فانه به يذكر رايا قديما لها .. لقد قالت له مرة ان الحب لن يموت أو يتغير .. وانها اذا أحبت شخصا فانها لن تتردد عن أن تصارع العالم من أجله اذا حدث له حدث .. ولو كان هو على خطأ أو كان مذنبا ! . اذن .. فهى ولا بد لن تلبث أن تتحرر من وطأة العطف الذى تولاها نحو بيسى وجعلها تلعنه أمام المحكمة - وان لم يدر سواه ان اللعنة موجهة اليه - واذ ذاك ستذكر هذا الرأى وتعمل بوحيه !

وداخله الأمل .. فاتجه بسيارته صوب قصر الحاكم .. كانت فينيلا قد سبقته اليه وأوت الى حجرتها وفكرت فى بادىء الأمر أن ترفض مقابلته .. ولكنها ما لبثت أن سمحت بها .

ومرت دقائق .. وكلاهما صامت وفى نفسه شتى المشاعر تعبث به فى عنف . وأخيرا هتف :

- فينيلا .. ! فينيلا .. ! لقد جئت اسألك الصفح ..!

- تسألنى الصفح ..! بل سل الفتاة التعسة التى القيت بها الى غياهب السجن .

- اننى لا أنكر ذنبى ولا أتملص منه .. ولكن .. اما ترين اننى الآخر أتعذب .. بل وقاسيت ما فيه الكفاية ..؟

- ولم لا تتعذب وتقاسى .. ؟ أليست الضحية المسكينة تتعذب .. ؟ ألم تقاس من قبل من جراء جرمك أنت .. ؟ ثم .. ليست هى الوحيدة التى تتعذب بسببك .. أنا الأخرى أتعذب .. لقد كنت فخورا بك وكنت أظنك خير

نصير للمرأة .. وكنت فوق هذا وذاك أخالك تحبنى .. فسعدت بخيالى أمدا .. ما كنت أظن ان فيكتور ستول .. دون الرجال كلهم .. سيحطم ثقتى فيه بهذا الشكل .. كم كنت غبية بلهاء ! .

وانهمرت الدموع من عينيها .. وحاول أن يذكرها بحبه. ويبرهن لها على اخلاصه .. ويقنعها أن ما حدث فى ماضيه قبل أن يتصارحا بالحب .. لا يعد خيانة لحبه لها .. ولكنها صاحت : محال ان أصفح عنك طالما كانت هذه الفتاة رهينة السجن بسبب خطيئتك .. دعنى .. اننى أكرهك .. أمقتك .. لقد حطمت قلبى .. جبان .. دعنى أذهب ..

وأذهلته ثورتها .. فجمد فى مكانه .. بينما انفلتت هى من الحجرة ..

وفى بطء اتجه الى سيارته .. والأمل يداخله فى انها قد تلحق به اذ تتبين مدى تهورها .. فتعتذر اليه .. وتوليه صفحها .. ولكنها لم تأت .. وتلكأ طويلا قبل أن يصعد الى سيارته .. بيد انها لم تعد فلم يجد بدا من المسير وقلبه يتمزق ..

وأصغت فينيلا الى صوت المحرك والاحاسيس المتضاربة تتنازعها .. لقد كانت حمقاء فى ثورتها .. وفكرت فى أن تعود اليه فتعتذر وتنعم بحبه .. ولكن كبرياءها ما لبثت أن قامت حاجزا بينها وبين ذلك .. ألم يتركها هكذا دون أن يسعى أو يلحف فى طلب مغفرتها .. أو لم تكن تعتقد انه يحبها وحدها .. فاذا به كان يحب بيسى قبلها ..!؟

***

« محال أن أصفح عنك طالما كانت هذه الفتاة رهينة السجن بسبب خطيئتك ..!»

باللكلمات القاسية تهبط على رأسه كأسوأط العذاب ..

www.liilas.com

وتتبعه أينما ذهب ٠٠ !

واحتبس نفسه فى مكتبه بقصر بالاموار بعد ظهر اليـــوم التالى ليكتب التقرير الذى سيصحب ملتمس العفو عن بيسى الى السلطات الانجليزية ٠٠ لم يدخر وسعا ٠٠ ولم يدع بابا الا طرقه ٠٠ حتى انه لم ينته من كتابة التـــقرير الا كانت المكتبة رأسا على عقب وقد تناثرت الكتب القانونية المختلفة فى أرجائها ٠٠

وخفف هذا التقرير شيئا من وطأة الالم الذى كان يخزه فى قسوة عاتية ٠٠ ولكنه ما لبث ان سمع ان تقرير الحاكم عن القضية ٠ كان ضد تقريره وضـــد ملتمس العفو ٠٠ واذ ذاك أحس كان يدا خفية صفعته ٠٠ من المؤكد ان السلطات فى لندن ستعمل بتقرير الحاكم ٠

ولم يعد يستطيع الاحتمال ٠٠ فما عاد الى قصر بالاموار بعد ظهر اليوم الذى سمع فيه هذا النبأ ٠٠ حتى أوى الى فراشه مهدما ٠٠ وعاده الدكتـــور كلوكاس ٠٠ فنصحه أن يلازم الفراش يومين على الاقل ٠٠ وأن يبتعد عن كل عمل ٠٠ أو انفعال ٠٠ أو اجهاد ٠

وفى فراشه ساءل نفسه ٠٠ لمـــاذا لا يدع الامور تأخذ مجراها ٠٠ لقـــد فعـــل كل ما أمكنه ٠٠ فاذا استجابت الحكومة الانجليزية لتقرير الحـــاكم ٠٠ ورفضت العفو ٠٠ أو حتى تخفيف الحكم ٠٠ فماذا فى وسعه أن يعمل ٠ ثم ، لم لا يكون اعدام الفتاة خيرا له ٠ ؟ انه على الاقـــل سيدفن زلته الى الابد ، فلا يعود يعانى منها العذاب ٠ !

وترامت اليه الانبـــاء ان مسز كوليستر أصبحت ترى سائرة بين بيتها وبين الصخرة التى وجدت عنـــدها جثة اللقيط ٠٠ وانها تزعم ان بكاء طفل كان يرتفع كلما اقتربت

من الصخرة ٠٠ لا سيما فى منتصف الليل ـ وما لبثت ان أدركت أن روح الطفل الذى لم يعمد ٠٠ قلقة لانها لم تدخل حظيرة المؤمنين ـ بالتعميد ـ ولذا كانت تصدعن عالم الارواح كلما رامت دخولا ٠٠ ولم ترتح مسز كوليستر حتى ذهبت فى منتصف ذات ليلة ٠٠ فصاحت فى الظلام : « اذا كنت ولدا فأدعوك جون ٠٠ واذا كنت بنتا فلتكن جوني » ٠ ومنذ تلك الليلة هدأت الروح ولم تعد المرأة تسمع البكاء ٠

وخيل لستول منذ سمع هذه القصة ، ان القصر قد امتلأ بالاشـــباح والارواح تطارده فى كل مكان ٠٠ وكانت مجرد رؤياه لجانيت كفيلا بأن يبعث فى ذهنه ذكريات غرامه مـع فينيلا حتى لم يعد يستطيع الاقامة فى القصر ، ففر الى المسكن الذى كان ما يزال يســـتأجره فى رامسى ولكن مرأى مسز كايل هناك ٠٠ كان يفكره بما هو أمر وأقسى ٠٠ بذكريات الخطيئة ! فنزح الى دوجلاس ٠٠ حيث أقام فى أحد الفنادق ٠٠ وانكب على دراسة الكتب التى ضمت أشهر قضايا الخطايا وقتل أولاد السفاح ٠٠ ولكن هـــذا لم يزده الا عذابا ٠٠ ورأى فى أحلامه يوما أن بيسى ماتت ٠٠ وانه لحق بها ووقفا أمام الله

وسمعها تصيح : لقد تركنى أموت ٠٠ لقد قتلنى! قتلنى!

فظل هذا الصوت يدوى فى مسمعيه أياما

ياللعذاب ! كان المسكين يدفـــع ثمن الخطيئة من راحته وهناءته !

***

على انه لم يكن الوحيد الذى أرهقه العـــذاب ٠٠ كانت فينيلا فى تلك الاثنـــاء نهبة لعواصف عاطفية راحت تعبث بقلبها ٠٠ كم أنبت نفسها اذ قست على ستول واقصته عنها؟

www.liilas.com

وكم اهاجت احاديث والدها كوامن شجونها .. كلما لامها وأقنعها أن ليس لاى امرأة أن تحاسب زوجهـــا على ما أتاه يوما فى ماضيه قبل أن يتزوجها .. ليس لها الا الحاضر .. وما الماضى الا ملك له هو .. ومن واجبها أن لا تسعى لنبشه

وزارت مرة بيسى فى سجنها ـ وهى تنتظر ورود الأمر من لندن بالبت فى مصيرها ـ فاذا بالفتاة تصارحها انها لاتحمل ضغينة لمستر ستول .. يالله .. الضحية لا تحقد عليه .. فما بالها هى تقسو ! وحدثتها بيسى عن علاقتها القـــديمة بستول .. وكيف انه شاء أن يتـــحرر من الزواج منها لأنه أحب فينيلا بعد ذلك .. فثار قلب هـــذه أسى وألما .. أى دليل على حبه لها أقوى من أن تسمع حديث هذا الحب من بيسى ؟

وأقبلت ـ فى نفس ذلك اليوم ـ جانيت لزيارتهـــا .. كانت جانيت هى الاخرى نهبة للألم فقد كانت على دراية بكل شىء .. وكانت ترقب أطوار ستول وما تولاه من هموم .. فيذوب قلبها اشفاقا عليه حتى تملكها الغضب على فينيلا .. وقررت أن تبين لها خطأها فيما ذهبت اليه من قســوة على الشاب المسكين . فحدثتها عن ذكريات المـــاضى .. وكيف كان مجرد ظهورها فى حياته باعثا له على الجـــد والنشاط والسعى وراء المجد .. ثم كيف كان عزوفها عن العودة الى الجزيرة عقب انتهائها من الدراسة .. طعنه قاسية أصـــابت فؤاده .. فاسلمته الى الأسى أولا .. ثـــم جعلت منه صيدا سهلا لبيسى .

وقالت فى قسوة متعمدة : وليتك اكتفيت بهذا .. بـــل هانتذى قد سعيت أخيرا كى تهيلى التراب على سمعته .. كى تلطخى بالفضيحة اسمه وشرفه على مسمع من الملأ فى المحكمة

ـ جانيت .. ولكن احدا لم يعرف لمن وجهت كلماتى !

ـ ولكنه عرف لمن سددت طعناتك فى اللحظة التى كنت فيها المرأة الوحيدة التى تملأ حياته . فى اللحظة التى كان عليك دون العالم بأسره أن تقفى فيها الى جانب زوجك مخطئا كان أم مصيبا .

ولم تستطع فينيلا بعد ذلك احتـــمالا .. فألقت بنفسها على صدر جانيت باكية صائحة : سليه أن يعود الى ثانية .

وحاولت فى الايام التـــالية أن تكتب اليه ولكنها كانت تمزق ماتكتب بعد الفراغ منه ثم سمعت أنه يقيم فى دوجلاس فعادت تشعر بجرح كبريائها ينزف الدم ثانية .. انه يقيم على مقربة منها ولكنه لا يفكر فى زيارتها .. بيد انها ما لبثت أن سمعت انه يتردد ليل نهار على المكتبة .. يبحث فى كتب القـانون دون هوادة أو راحة .. وتذكرت ما قالته له « لن أصفح عنك طالما كانت هذه الفتاة رهينة السجن » اذن فهو بلاريب يسعى وراء المبادىء القانونية التى يستطيع استعمالها فى المطالبة بالرأفة بالفتاة .. واذن فهو ولا شك يعمل على اطلاق سراحها .. واذ ذاك يأتى ليقول : « ها هى ذى بيسى حرة طليقة .. ها هو الحـــاجز الذى يفصلنا قد تلاشى » واسعدها هذا الخاطر ورد عليها هناءتها .

ولكنها فوجئت يوما بخطاب حكومى من لندن . ورد الى ابيها متضمنا تأييد حكم الاعدام على بيسى . بناء على تقرير الحاكم .. وخبت أضواء الامل .. وتحطمت الامانى . اذن فستول لم يعمل شيئا .

وأسرعت الى السجن لتزور الفتاة وتترفق فى ابلاغهـــا النبأ . واذا هى ترى من نافذة عربتها . ســـتول قادما الى قصر الحاكم . كان ولا ريب مقبلا ليحتج . وهزها الاشفاق اذ رأت وجهه الناحل المتغضن . وهمت أن تهبـــط اليه .

www.liilas.com
www.alkottob.com

ولكن العربة كانت قد ابتعدت عنه فى اللحظة التالية . وبقى قلبها يتنازعه الحب والغضب .

الفصل الخامس

خطة الانقاذ

تلقى الحاكم ستول فى ترحاب وترفق . ولكن ستول بادره قائلا :

ـ لقد بلغنى انك أرسلت تقريرا ضد التماس الرأفة بالفتاة . فجئت أوضح لك الأمر على ضوء دراستى الاخيرة له .. ان قوانين الامم المتحضرة تجمع كلها على عدم ادانة الشخص الذي يقتل وهو فى غير وعيه وارادته .. ولقد كانت بيسى . وأى امرأة أخرى فى مثل حالتها عندما وقعت الجريمة ـ غير مسئولة . كانت كل أعمالها غير أرادية .

ـ وكيف ؟

ـ لقد تحول القانون الانجليزى عن اعتبار قتل أولاد السفاح جريمة يعاقب مرتكبها بالاعدام . بل ان قوانين بعض الدول لا ترى انها جريمة على الاطلاق . ولا تحاسب المرأة على ما يصدر منها فى الخمسة الايام التالية للوضع . لأنها ترى انها تكون فى حالة فقدان الوعى والادراك . فى حالة قصور عقلى أو خبل .

ـ أتعنى .. ؟

ـ أعنى أن الفتاة لم تكن تضمر أية نية سيئة . بل انها كانت فى تصرفاتها مسوقة بنية طيبة .

وقال الحاكم فى نفسه : (انه مريض لا يرى اننى انما سعيت بطلب اعدام الفتاة الى تهيئة أسباب السعادة له !)

وتحول اليه يقول : ولكننى استلمت المرسوم اليوم بتأييد حكم الاعدام ، وقد ترك لى أمر تعيين موعد التنفيذ . لقد

ضممت تقريرى الى أولى الأمر فى لندن .. وجهة نظرى الخاصة . فأنا لا أرى أية نية طيبة فيما أقدمت عليه الفتاة .. ولا أراها جديرة بأى عطف أو رأفة .

ومرت لحظة صمت كان ستول فيها بادى الانفعال ثم قال اخيرا :

ـ انك اذا نفذت هذا الحكم يا صاحب السعادة . ترتكب جريمة . من أشنع الجرائم القانونية ..

فهب الحاكم من مجلسه وصاح فى سخرية :

ـ اذن . فأنا المجرم ؟ . حسنا . اننى هنا كى اعمل لصالح الجزيرة العام .

ـ سيدى . أعرف اننى سأندم اذا قاومت سلطتك ، ولكننى أنذرك بأن اعدام الفتاة لن يكون يوما ما .

ـ ماذا ؟ .

ـ ان الاعدام لن ينفذ قط . لاننى سأحول دون تنفيذه .

فامتقع وجه الحاكم .. وغص بريقه .. وصاح :

ـ أتعنى أنك تقاومنى .

فأجاب ستول فى اصرار : أجل .

وامتدت يد الحاكم الى الجرس . فأدرك ستول انه يريد ان يأمر الخدم بطرده . فغادر القصر من تلقاء نفسه .. وقد ضاعف من أساه انه بشقاقه مع الحاكم .. يحرق آخر وشيجة تربطه بفينيلا .

* * *

عندما وصلت فينيلا الى السجن . راعها أن تجد بيسى قد علمت بنبأ تأييد حكم اعدامها . قبل مقدمها . من حارس السجن .. وكانت الفتاة فى أول الأمر بين مصدقة للخبر

www.liilas.com
www.alkottob.com

وهكذبة ·· ولكنها فى كلتا الحالتين تذكرت كلمات جيـــل عندما ساقها الجنود الى السجن بعـــد المحاكمة ·· فعزت نفسها بانه ما يزال يحبها ·· وخطر لها انها لو كتبت له لما تردد عن العمل على انقاذها ·· وصورت لها ثقتها فيه انه لن يتردد عن أن يرحـــل الى لندن فيسعى للمثول بين يدى الملك نفسه يسأل العفو عنها ··

وبهتت فينيلا لهذه الثقة العمياء ·· ولكنها اطمأنت الى ما لها من أثر نفسانى عميق ، ينقذ الفتاة من آلام الحقيقـــه المرة · ولم تتردد حين رجتهـــا بيسى أن تساعدها فى كتاب خطاب لجيل · ان جلست تكتب ما تمليه عليها ، لتريح قلبها المعذب المضنى · ثم تطوعت بأن تتـــولى ارسال الخطاب بنفسها الى الفتى ·

وعندما عادت الى قصر الحاكم · فوجئت بهمسات تسرى بين الخدم · عن ستول · لقد طرده الحاكم من القصر هـذا الصباح ·

وقال أبوها عندما التقت به: لقد جاء ستول هذا الصباح · ليهددنى باننى اذا حاولت تنفيذ حكم الاعـــدام فى سجينة كاسل روشن · فلن يتردد فى منعى ·

وتولى فينيلا فرح طاغ · حاولت أن تكتمه · متسائلة : وكيف تظنه سيمنعك ؟

ـ بأن يسعى بنفسه لدى أولى الأمر · ولو انه وفق، لكان فى هذا ضربة قاسية لنفوذى · لقد كنت أنت السبب ـ حين قسوت عليه وصددته ، لانك اعتبرته المسؤول الوحيـد عن كل ما أصاب الفتاة · فعمد الى هذا العمل لارضائك ·

ولم تعبأ فينيلا لغضب أبيها · فقد أسعدها أن تجـد فى عمل ستول ، دليلا على اهتمامه بنيل رضاها · إذن فقـــه

برهن على انه الرجل الذى توسمته فى شخصه · فليساعده الله !

***

لم يدخر ستول جهدا · ولم يضع لحظة من الوقت · منذ خلف قصر الحاكم بعد ذلك اللقاء العاصف ·

وراح يفكر فى الخطة التى يتبعها · أيسعى لدى أولى الأمر فى لندن ؟ · انها خطة غير مجدية · فهم يعضدون الحـــاكم ويقرون رأيه · واستعاد ستول حديثه مـــع الحاكم · فاذا الحجج التى استند عليها لينقذ الفتاة من الاعدام ، ترمى الى أكثر مما ذهب اليه · فما دامت هذه الحجج تدعو الى عـدم اعتبار ما فعلته الفتاة جريمة على الاطـلاق · فان بقاء الفتاة رهينة السجن يعد غبنا أيضـــا · بل ·· ان القانون الذى يدعو الى ذلك يعد جريمة · ولذا فمن العدل الخروج عليه · وأخذت هذه الفكرة تقوى فى ذهنه وتنمو فى اليومين التاليين حتى اتجهت خطته لانقاذ الفتاة مع اتجاه هذه الفكرة · وما لبثت ان قامت على أساس منها ·

كان ستول على دراية تامة بسجن كاسل روشن · وقـــد درس كل صغيرة وكبيرة فيه منذ انتدبته « جمعية الحفائر الاثرية » التى كان وكيلا لها لدراسة تاريخ السجن · ووضع برنامج للقيام ببعض الحفائر فيه · اذ كان بناؤه أثريا قديما يرجع الى بعض العصور القديمة · وكان السجن صغيرا يقوم على حراسته · حارسان وحارسة · وقد نشأ أحد الحارسين ـ وهـــو صاحب السلطة على زميليه ـ فى قصر بالاموار · وعمل ثلاثين سنة فى خدمة القاضى الراحل فهو يعرف ستول تمـــام المعرفة · ويجله ويحترمه · ثم كان لستول حجرة خاصة فى هذا السجن أفردت له الى أن ينتهى من العمـــل

www.liilas.com

الذى انتدبته الجمعية للقيام به ٠

كانت كل الظروف مواتية ٠ وكلها تتجه الى ناحية واحدة٠ تلك هى أن يعمل على اخراج بيسى من السجن ٠ وفى رغبة وحذر واحكام ، وضع خطته ٠٠ كان حكم الاعدام سينفذ صباح الاثنين التالى ٠ أى بعد أسبوع ٠ فعليه أن يحقق الخطة مساء الأحد ٠ ولكن ٠ ماذا بعد خروجها ؟ ٠ انها ان ظلت فى الجزيرة كانت عرضة لان يكشف مخباها ٠ وبذلك تضيع الجهود التى بذلت فى سبيل انقاذها سدى ٠ فليس من بد من ارسالها الى الخارج ٠ وكانت السفينة التى تبحر الى انجلترا كل أسبوع تغادر الجزيرة فى صباح يوم الاثنين ٠ ولكن ٠٠ قد يكتشف أمر فرارها قبل ابحار السفينة ٠ وفى أى الحالات ٠ فان من السهل على السلطات العثور عليها بين ركابها ٠ ولذا فمن الخير أن تتبع طريقا آخر ٠٠ بل لعل أفضل الوسائل ٠٠ أن ترحل عن الجزيرة فى أحد قوارب الصيد ٠

لذلك قصد فى ساعة مبكرة الى حى صائدى الاسماك ٠ ومضى يتجول حتى أفضى الى الميناء وسرعان ما اهتدى الى سفينة صيد ايرلندية ٠ باع صاحبها صيده فى الجزيرة واعتزم العودة الى ايرلندا ٠ وسأله ستول وقد انتهز فرصة أمن فيها أعين الرقباء ٠ عن طريقه عند مبارحته الجزيرة ، فأجابه الرجل انه سيتجه أولا الى ثغر كاسلتون ، ثم يغادر الجزيرة الى حيث تلقى به الرياح ، وتلفت ستول ذات اليمين وذات الشمال ، ثم خطا الى سطح السفينة ، وغاب مع صاحبها فى حجرته الخاصة ، وعندما غادر الحجرة بعد نصف ساعة ، كان مشرق الوجه ، وسأل الرجل قبل أن يغادر السفينة : اتفقنا ٠ ؟ اذن فى أى ساعة يبلغ المد أقصاه فى مساء الاحد ؟

- فى الحادية عشرة يا سيدى ٠

- اذن لا تنس ان عليك أن تبحر فورا عند وصول المسافرين الى السفينة ، ولكن ، ماقولك فى رجال الميناء ٠٠؟

- دع الأمر لى يا سيدى ٠

وعندما عاد ستول الى دوجلاس كان مرتاح البال ، لقد عقد اتفاقا يناقض القانون وهو رجله وخادمه ، ولكنه كان مطمئنا الى أن عمله سيرضى الله ٠

***

وبقيت أمامه عقبة واحدة ٠٠ من يرافق بيسى فى رحلتها؟ واتجهت أفكاره نحو أليك جيل ٠٠ ولكن هل يرضى اليك بالذهاب ٠٠؟ يجب ٠٠ وخيل الى ستول أنه ان لم يقبل ويصفح رغم انخداعه والصدمة التى لقيها ٠٠ فانه لن يتمالك أن يخنقه ٠٠ ولكن ٠٠ اذا صفح جيل عن بيسى ٠٠ فهل تراه غافرا له هو ٠٠ ؟ وتذكر كلماته ليلة محاكمة البحار الذى قتل زوجته حين كشف انها غررت به ٠٠

ولكن هذا لم يثنه ٠٠ بل قرر أن يمضى فى طريقه مهما كلفه المضى من ثمن ٠٠

الفصل السادس

الفـــرار

كانت أحوال أليك جيل قد تطورت منذ محاكمة بيسى تطورا غريبا ، فقد تولته حالة شبه جنونية أثر الصدمة التى تلقاها قلبه ، فراح يهيم على وجهه فى الجزيرة ، شارد اللب، زائغ البصر ٠٠ كانت كل العواطف التى اكتنزها فى قلبه قد تحولت الى حقد مقيت مرير ٠٠ مضى يغلى كبركان ثائر ضد ستول ٠٠ فقد خيل اليه ان هذا قد غرر به ٠٠ وانه قد

www.liilas.com

اتفق مع بيسى على خداعه .. لقـــد دار بخلده أن فيكتور لم يوافق فى سرعة على أن يدع له بيسى .. عنـدما صارحه بحبه لها .. الا لأنه شاء أن يتخذ منه ستارا يخفى خطيئته خلفه .. وقويت هذه الهواجس فى ذهنه المختـــل حتى فكر فى قتل ستول .. ولكنه لم يستطع فقد خارت عزيمته فى اللحظة الاخيرة .

وكان منذ المحاكمة يتحاشى لقاء الناس .. وينكر نفسه على زائريه .. ولكنه فوجىء ذات يوم بأبيه يدق بابه ولـــم يسعه أن يتهرب من لقائه .. كان البوليس قد شكا الى الأب المسكين حالة ابنه وأنذره ان بقى عليها فلن يكون ثمة مناص من اعتقاله وارساله الى مصـــحة الامراض العقلية .. لذلك هرع الرجل ينصـــح ابنه بالرحيل الى الخارج .. تفاديا للفضيحة التى تحيق به لو حـدث ما أنذره به البوليس .. وكان الوالد سخيا كريما .. فدفع الى اليك بحزمة ضمت ألف جنيه انجليزى .. ولكن الشاب المسكين أصر على جواب واحد راح يكرره :

ـ لا أستطيع .. محال أن أغادر الجزيرة .

وضاق الوالد ذرعا .. بيد انه ما لبث أن قال :

ـ سأترك لك فرصة للتروى .. فهاك النقود واذا لم تبـرح الجزيرة قبل يوم الاثنين المقبـــل فلن أنتظر حتى يرسلك البوليس الى المصحة .. بل سأحملك بنفسى اليها .

فى صباح اليوم التالى .. سمع جيل وقـــع اقدام سيدة خلف بابه .. فظنها احدى أخـواته جاءت تضم رجاءها الى رجاء أبيها .. لذلك أصم أذنيه عن سماع طرقاتها .. وبعد لحظات .. سمع حفيف وريقة تدفع من تحت الباب .. فلما اطمأن الى تلاشى وقـــع أقدام السيدة .. تناول الوريقة .. فاذا بها خطاب بيسى .. الذى عاونتها فينيلا فى كتابته منذ

خمسة أيام .. والذى ذكرت له فيه مصيرها .. وتوسلت اليه أن ينقذها .

وتناسى جيل كل شىء .. الا الصيحة اليائسة التى انبعثت خلال سطور الخطاب .. فجلس يفكر فى وسيلة لانقاذها .

ولكنه فوجىء بعـــد الظهر بطرقات عنيفة على الباب .. فأمسك بانفاسه وقـد ظن ان رجال البوليس جاءوا لاعتقاله كمـــا ذكر أبوه .. وتكررت الطرقات وهى تزداد عنفا كل مرة .. حتى وجد نفسه مضطرا الى أن يفتح الباب وتراجع فى دهشة اذ وجد ستول أمامه .. ولكن هـــذا خطا الى الداخل .. وأغلق الباب خلفه .

وهتف ستول : اليك !

ـ أخرج .. أخرج !

ـ ان لدى أنباء هامة لك

ـ ليس ثمة غير شىء واحد .. هل ستعدم بيسى ؟

ـ هكذا قرروا

ـ اذن .. خذ هذه

وفى اللحظة التالية .. هوت يده فى صفعة اليمة على وجه ستول .. ثم هجم ناشبا أظفاره فى وجنتيه .. ولكن ستول لم يصده .. ورأى جيل الدم يجرى من أثر أظفاره .. فعاد الى وعيه .. وبهت .. ثم صاح : اذن .. فأنا مجنون حقا!

فقال ستول فى هدوء : لا عليك ! اننى أستحق كل هذا .

وبعد دقائق كانا يجلسان جنبا الى جنب .. وقـــد راح ستول يزجى اليه بعزمه على انقاذ بيسى .. ويعرض عليه أن يشاطره تحقيق هذه الغاية .

ـ كل ماعليك أن ترحل معها الى الخارج .. على أن لا تعود قـــط .. وعلى أن تتناسى أسرتك .. وتتخلى عن ثروة أبيك وميراثك .

www.liilas.com

ـ لست أبه لشيء من هذا ·· فنبئني عن خطتك ·

وطفق ستول يشرح له كل شيء ·· سترسو السفينة الايرلندية على شاطيء كاسلتون في مساء الأحد في الناحية المقابلة للسجن ·· وهنـــاك باب خارجي خاص يفضي الى الحجرة التي أفردت لستول في الســـجن لمهمته الخاصة بالحفائر والآثار ·· غير باب السجن العام ·· ففي الساعة الحادية عشرة من مساء الأحد ·· سيفتح ستول هذا الباب الخاص ·· ويخرج بيسي منه وعلى جيل أن يكون في الانتظار عند هذا الباب فيرافقها الى السفينة التي ستبحر بهما توا الى ميناء كوينزتون حيث يســـتقلان احدى البواخر الذاهبة الى نيويورك ·· ومتى وصلا · فعليهما أن يرحلا الى أقصى غرب الولايات المتحدة ·

وبدا التحمس على جيل · فازداد ستول ايمـــانا بان الله يرعى عمله · من كان يظن أن الأمر ســـينتهي بهما الى أن يتعاونا معا ؟ ·

واتفقا على أن يلتقيا في منزل الآنستين بروان في ديربى هافن في الساعة الثامنة في مساء الأحد قبل أن يبدآ خطتهما

كان يوم الأحد يوما بارد الجـــو · مكفهرا · انتشر فيه الضباب ·· وبدا ستول في هذا اليوم في حالة من الانشراح لم تعهده جانيت عليها منذ أمد طويل ·

وعندما هبط المساء · استقل ستول سيارته · حتى اذا أشرف على كاسلتون · تركها لدى كوخ مهدم خارج البلدة · ثم تقدم في طريقه على الأقدام · اذ كان يبغي أن يتأكد من استعداد صاحب السفينة قبل أن تحين ساعة العمل ·

وفيما هو يمر أمام أحد المنازل الواقعة على حافة الطريق · أبصر بامرأة راكعة لدى المدخـــل تصلي فارتجف اذ رآها · كانت مسز كوليستر والدة بيسي · فقد أصابها الخبل منذ

حكم على ابنتها فمضت تضرب في أنحـاء الجزيرة تهذي في جنون · حتى اذا اقترب موعد الاعدام · أقبلت الى كاسلتون لتلقى على ابنتها نظرة أخيرة ·

ورآه رجل كان يقف الى جوار المرأة فقال : يبدو أن هـذا المار هو القاضي الشاب ·

فقالت مسز كوليستر : بل هو القاضي العجوز · أبوه ·

ـ ولكن الأب مات يا امرأة

ـ انني أقول انه الأب ·· انه الأب ·

وتأكد ســـتول من استعداد السفينة فعـــاد ادراجه الى ســيارته · وأسرع الى ديربى هافن · حيث التقى بجيل · فراح يعيد عليه الخطة · ثم استطرد :

ـ في الساعة الحادية عشرة تماما · عنـــدما تنتهي آخر دقات الساعة · اقرع جرس الباب العام للسجن · ثم أسرع الى الباب الصغير · فتجدني في انتظارك بصحبة بيسي ·

وعندما هم ستول أن ينصرف رافقه جيـــل الى الخارج · ودفـــع اليه برسالة مقفلة · وسادت فترة صمت ثم قال في صوت أجش : سنكتب لك عندما نبتعد تماما عن الجزيرة ·

فصاح ستول : لا · لا · اياك · والا انكشف الأمر

وساد الصمت ثانية · ثم قال جيل : أظن اننا لن نجـــد فرصة للوداع غير هذه ·

فلم يجب ستول · بل تناول يد صديقه · وشد كل على يد الآخر برهة · ثم افترقا في صمت

لم يدهش حارس السجن اذ رأى القاضي الشـــاب يزوره فيما بعد الساعة التاسعة مساء · في تلك الليلة · فقـــد كان ستول ـ قبل القضية الاخيرة ـ كثير التردد على السجن في أوقات فراغه · لينجز العمل الخاص بالحفريات ·· وكان

www.liilas.com
www.alkottob.com

الحارس ـ يدعى فوندى ـ خادما قديمـــا نشا وترعرع فى قصر بالاموار • فكان يدين بالولاء لستول بعد أبيه • لذلك رحب بمقدمه ايما ترحيب •

واطمأن ستول قبل كل شىء الى أن الحارس وحيد • كان زميله فى أجازته الاسبوعية • بينما كانت الحارسة مريضة فى دارها •

وسأله ستول : كيف حال سجينتك يامستر فوندى ؟ •

ـ فى خير حال •• انها ما تزال تنصت منتظرة وقـــع أقدام مستر جيل حاملا اليها الامر بالعفو • فلما تأخـــر الوقت • استسلمت للنوم وهى مطمئنة الى انه قد يأتى فى الصباح الباكر •

ـ ان أمر العفو لم يصل بعد • ولكن قد تصل البرقية به فى أى لحظة فاذا سمعت جرس الباب يدق • فبـــادر لترى الطارق • والآن • اعطنى المفتـــاح • فاننى أرجو أن أرى المسكينة •• للمرة الأخيرة •

وبقى الحارس فى حجرته • بينما سار ستول الى حجرة بيسى •• ففتح الباب وهمس « بيسى ! » ورغم انهـا كانت مستغرقةفى النوم • الا ان الهمسةسرت الى أذنيها فأيقظتها• وكأنما كانت تتوقع الطارق ، اذ صاحت وهى تسعى اليه :

ـ هل جئت ؟ • كنت واثقة من مجيئك •

ولكنها بهتت اذ لم تجد جيل • بل وجدت ســـتول بدلا منه ••

ووقف ســـتول منكس الرأس وكأنما يقف أمام قاض يحاسبه • ثم ذكر لهـــا انها لن تعدم • وأمسكت الفتـــاة أنفاسها دهشة ثم طفقت تحدثه فى مزيج من عواطف الفرح والأمل •

وقال أخيرا : لقد وصل أمر العفـــو عنك • ولكن • على

شريطة أن تغادرى الجزيرة •• وهنـــاك سفينة راسية فى انتظارك لتقلك •

ـ الليلة ؟ ••

ـ أجل •• سترحلين الى نيويورك وسيرافقك أليك جيل• وقد تركته منذ برهة يستعد •

ولكن قلب الفتاة حدثها بان فى الأمر شيئا • ان ستول يذكر لها انها ستغادر السجن فى الساعة الحادية عشرة • وانه ليس لها أن ترى أمهـــا للمرة الاخيرة • أو حتى تودع حارســـها الطيب • وما لبثت ان راحت تلح عليه • حتى صارحها بالحظة كلها •

وتساءلت اذ فرغ : وماذا يكون من أمرك ؟

ـ لا داعى للقلق • فقد احتطت لكل شىء •

ـ ولكن اذا وقع أمر غير متوقع • وصرت فى حرج ؟

ولكنه قاطعها فى صوت خافت وهو يتنفس فى صعوبة :

ـ بيسى •• لقد اسأت اليك اساءة لا تغتفر منذ عام •

ـ لقـــد كنت شريكتك • فلم تكن وحدك المذنب • ولن أقبل أن أفر وأدعك لـ •• لا •• لن أذهب ! •

وعبثا حاول اقناعها•فقد همت أن تصيح منادية الحارس• ووجد موقفه حرجا فوضـــع يده على فمها يكتم صيحاتها •• وما لبثت ان خارت قواها وأغمى عليها •

وصاح القاضى مستدعيا الحـــارس كى يبحث فى حجرته الخاصة عن زجاجة من « البراندى » وأقبل الحارس جزعا • وأسرع الى حجرة القاضى ينقب فى مكتبه وفى نواحى الحجرة ـ كما أمره ـ عن الزجاجة المزعومة فلما اطمأن ستول الى ابتعاده وانشغاله حمل بيسى بين ذراعيه الى خارج السجن • وكانت الساعة الحادية عشرة الا خمس دقائق والظلام ضارب أطنابه • واضطرب اذ وصـــل الى فناء السجن • وارتعشت

www.liilas.com
www.alkottob.com

أوصاله اذ لفحه هواء الليل · وترنح وكاد يسقط لولا أن استند الى جدار قريب منه · ثم مضى نحـــو الباب الخاص المفضي الى حجرته · وأنعش الهواء بيسى فبدأت تســـتعيد حواسها · وغمغمت بكلمات مضطربة · فجعل وجههـــا الى صدره حتى يكتم صوتهـــا · ووصل الى الباب · فعالـــج مزالجه وفتحه وطالعه وجه جيل في الخارج فدفع بها اليه فى صمت ·

وحمل جيل الفتاة وهو يلهث · ثم اتجه صوب الشاطىء · وستول يراقبه · واختفى جيل وتلاشى صوت خطواته · ثم مزقت السكون دقات ساعة السجن · تعلن الحادية عشرة · وسمع ستول صوت مرساة ترتطم بحـافة سفينة · ثم .. حفيف جسم ينساب على الماء ·

وفى خطوات سريعة عاد الى حجرة السجينة فلف الأغطية على فراشها حتى تبدو كجسد نائم ثم جلس ينتظر وقد أحس بما يشعر به المجرم حين يأتى جريمته ، وان كـــان مطمئن النفس الى أنه يسعى بعمله الى ارضاء الله ·

وأقبل الحارس بعـــد قليل يقـــول : لم أجد الزجاجة يا سيدى ·

ـ لا عليك ، لقد أفاقت المسكينة · ثم استسلمت للنوم · فهيا بنا الى حجرتك حتى لا نزعجها

وفى حجرة الحارس ، طلب ستول اليه أن يعـد له قدحا من الشاى ، ثم سأل أن يقص عليه طرفا من ذكرياته عندما كان يعمل فى قصر بالاموار فى شبابه ، كان ستول يبغى أن يبعـــد الحارس أطول وقت ممكن عن حجرة السجينة حتى لا يكشف أمر فرارها ·

وعندما دقت الساعة دقاتها الاثنتى عشرة ، كان ستول

يخلف السجن وهو يلقى على بروجه القائمة كالاشباح وسط الظلام · نظرة أخيرة ·· ووقف الحارس يودعه لدى الباب · فلماهم بالسير قال : مستر فوندى · اننى لا أود أن يعـــلم أحد اننى كنت هنا الليلة · فهل تعدنى ؟ ·

ـ مر تجد منى طاعة يا سيدى · لن يعـــلم أحد ما دامت هذه رغبتك ! ·

القسم الخامس

الفصل الأول ـ مولد أكذوبة

كانت فينيلا تقضى الليلة فى فندق فى كاسلتون ، لتكون فى الصباح الى جانب السجينة المسكينة تخفف عنهـــا آلام ساعتها الاخيرة · ولكنها ما استيقظت فى صباح يـــوم الاعدام ·· حتى وجدت اشاعة تنتشر فى البـــلدة عن فرار السجينة · فهرعت الى الميدان الذى كان معدا لتنفيذ الحكم · فاذا به زاخر بجموع القوم وقـــد أذهلهم الحادث ، وراحوا يعيبون على الحكومة اهمالها ·

وسرت الى جسدها موجة سرور وارتياح ·· وتحولت فاذا بها وجها لوجه أمام مسز كوليستر التى كانت تصيح : ليزا ·· ليزا ·· الم أقل ان القاضى العجوز كان مبعوث السماء لانقاذ ابنتى ·

واسترعى صياحها انتباه القوم فالتفوا حولها ، وأمسك بها الرجل الذى كان يقف الى جوارها فى الليلة الماضية ـ حين مر ستول بداره ـ يحاول اسكاتها فتقدمت منه فينيلا تسأله عن الخبر · فقص عليها ما رأياه بالامس ·

وسألته فينيلا : أواثق أنت من أنه كان القاضى الشاب ؟

ـ ظنناه هو اذذاك · ولكنها أكدت انه كان الأب الراحل ·

www.liilas.com

ولست أدرى كيف هبط الى الدنيا ؟

وعادت فينيلا الى حجرتها فى الفندق وهى ترتجف ، من يصدق أن فيكتور ستول أعان بيسى كوليستر على الفرار ؟ وقفز الى ذاكرتها تهديده للحاكم .. ولكن .. من يعقل أن حامى القانون .. يحطم اغلال متهمة سجينة .. ؟ ولماذا ..؟ أتراه رام أن يعوض الفتاة عماجره عليها من ويلات .. أم .. ليرضى فينيلا .. ؟

واستيقظ حبه ثانية فى قلبها ، وودت لو استطاعت أن تقف الى جوارة اذا كشف أحد سره

ولم تدخر فينيلا وسعا فى العودة الى قصر الحـــاكم فى أسرع وقت ممكن ، فاذا بأبيها ثائر حانق ، وقد أرسل رجال البوليس ليبحثوا عن الهاربة فى السفينة التى كانت تتأهب للابحـــار فى ذلك اليـــوم الى انجلترا ، وفى كل مكان فى الجزيرة ، كما أوفد من يبحث عن محاميها الشاب ، أليك جيل .. !

وما كاد الحاكم يرى ابنته ، حتى ذكر ستول ، ورنت فى اذنه كلماته حين أنذره ان حكم الاعدام لن ينفذ فى السجينة، فأغلق باب الحجرة ، وخلا بها يسألها :

ـ هل سمعت بالحادث .. ؟

ـ أجل يا ابى ..

ـ اذن فهل لك أن تلقى ضوءا عليه .. اعنى ، هل رأيت أو سمعت عن ستول منذ اليوم الذى هددنى فيه .. ؟

ـ كلا ..

ـ وهل تظنين انه يحتمل ان .. ولكن .. محال .. ان اى شخص فى مركزه لا يستطيع .. لا بد انه الشاب الآخر

ـ من تعنى يا أبت .. ؟

ـ أليك جيل .. انه الوحيد الذى يود انقاذ الفتاة ..

وقصدت فينيلا الى حجرتها وقـــد غمر قلبها ارتياح ناعم عذب ، واطمأنت الى ابتعاد الشكوك عنه ، انه الآن آمن من كل خطر ، ولكن ، ترى ماذا يفعل الآن .. ؟

كان ثمـــة منظر آخر يجرى فى قصر بالاموار .. فبينما جلس ستول يتناول افـطار فى ساعة متأخرة من الصباح ، راحت جانيت تقص عليـــه الخبر الذى انتشر فى الجزيرة انتشار النار فى الهشيم .. واصطنع ستـــول ما أمكنه الدهشة ، وكأنما فوجىء بنبأ ما كان يعتقد حدوثه قط .

ـ لقد حمل الخبر الينا سكرتيرك يوشع سكارف ، وهو يقـــول ان رائحة المؤامرة تفوح من هـــذا الحادث .. وان الظنون تتجه الى اليك جيل .. ياللفتى المسكين !

وخلا ستول الى نفسه طيلة اليوم ، فلم يذهب الى المدينة كما كان يعتزم .. يالله ! ها هى ذى الظنون تتجه الى جيل فى ذنب آخر يرتكبه هو .

وأقبل يوشع سكارف فى المساء يذكر له ان البوليس جاد فى البحث عن الهاربة ، و .. عن جيل .

ـ ولكن الجميـع يشفقون عليك يا سيدى ، لأنك صديقه الحميم .

وأحس ستول ان الارض تميد به .. كيف لم يخطر بباله انه عند ما ساعد جيل على الفرار مع بيسى ، كان يدفع به الى الوقوف موقف المجرم الذى خرق القانون ؟ . ترى ما الذى يظنه فيه جيل ، حين تبلغه الانبـــاء فى البقعة النائية التى سيصل اليها ؟ : سيرى ولا ريب انه كان يستغل صداقتهما فى درء الشبهات عن شخصه .. ولكن ، أيترك مثل هـــذه الاكذوبة دون أن يعمل على تصحيحها ؟ .

وجرى ذهنه الى فينيلا .. ان فى وسعه الآن أن يعـــود اليها ، ولكن .. من المؤكد انها ستكشف يوما ما السر الذى

www.liilas.com

يخفيه ، فتراء خائنا لصـــديقه وللقانون ·· وللقسم الذى تقيم به يـــوم بوىء منصب القضـــاء ·· واعتزم فى نفسه الا يسمح لكل هذا أن يحدث ، فقرر أن ينتظر ما تسفر عنه اجراءات الحاكم ، ثم ·· يكشف الستار عما حدث ·

الفصل الثانى ـ وادى الاثم

كانت أول خطوة للحاكم بعد ذلك هى القـاء القبض على الحارس المسكين ، والتحقيق معه · ولكنه أنكر ان شخصا ما حضر الى السجن فى الليلة الماضية ، وأصر على انه لا يعـــلم شيئا عن الوسيلة التى نفذ بها الحادث ·

وزارت فينيلا الحارس المسكين فى سجنه خلسة · فأخذت تتلطف اليه فى الحديث ، وتدعوه الى الثقة بها · حتى أفضى اليها بمـــا لم يفض به الى أحد · فحدثها عن زيارة القاضى ستول للسجن فى المساء ·

ـ ولماذا لم تبح للحاكم بذلك عندما سألك ؟ ·

ـ لأننى وعدت القاضى أن لا أفضى بنبأ مقدمه لأحد ·· لقد نشأت فى ربوع مقاطعة بالاموار ، وعلى خير أسرة القاضى ·

وأحست فينيلا بالخجل · اذ قيد ستول الحارس المسكين بهذا الوعد · ليتستر على جريمته الجديدة ·· ولكنها عادت تسأله :

ـ ولكن · هب أن اصرارك على الكتمان جر عليك المتاعب؟

ـ لقد ساعدنى القاضى الأب على الحصول على منصبى ·· ولن يسمح القاضى الابن بأن يرانى أقصى عنه ·

ـ ولكن · هب أن الحاكم قيد سلطته · فلم يستطـــع مساعدتك ·

ـ اذن · فلا أقـــل من أن أقاسم سيدى السابق بعض متاعبه ·

وترقرقت الدموع فى عينيها وقالت : انه لم يكن فى حالة جيدة فى الايام الاخيرة يا مستر فوندى ، ولعله كان يتصرف عن غير وعى · لذلك · فربما كان قد كتم عنك الحقيقة ·

ـ لقد فكرت فى كل شىء يا سيدتى ·· ولن يثنينى شىء عن الصمت ·

وعندما عادت فينيلا من هذا اللقاء · بادرها أبوها بالسؤال عما اذا كانت تعرف أن ستول يحتفظ بصورة لصديقه جيل· كان يبغى أن يذيع منشوراً فى الجزيرة ، وأن يرســـل منه نسخا الى الخارج للبحث عن بيسى وجيـــل ، وكان يود أن يرفق المنشور بصورتيهما ، وقد وجدت صـــورة بيسى فى مسكن جيل الذى اقتحمه رجال البوليس ، وبقيت صـــورة جيل ·· لذلك قرر أن يكتب لستول يرجوه أن يوافيه بها··

قالت فينيلا : ولكنه صديقه الحميم يا أبت ··

ـ ان ستول قاض ، وقد أقسم أن يساعد على تحقيـــق العدالة غير متأثر بنزعات خاصة تمت الى الصداقة أو الحب أو النفع الخاص بصلة ·

ولكن فينيلا أشفقت على ســـتول من الموقف · فلو أن فيكتور قدم الصورة ·· لقضى بذلك على آخر شعور نبيل فى نفسه ·· وما كان له أن يرفض · فان الواجب يحتم عليه أن يساعد القانون ·

وودت لو هرعت الى بالاموار فحذرته · ونصحته أن يعترف بذنبه · ولكنها عادت تفضل أن تدعه حرا فى تصرفاته ، ففى وادى الاثم · يجب أن تسير روح الآثم وحدها تشق طريقها كما قدر لها ··

ولكنها خلت الى نفسهـــا فى حجرتها · فراحت تصلى وتدعو الله أن يساعده ·

وكان ســـتول يعزى النفس بأن ما فعله لم يكن جريمة

www.liilas.com

تغضب الله · لأن الجريمة لا بد أن ينـــجم عنها ضرر ما · ولكن ما فعله لم يخلف ضررا ·

بيد أن هذا العزاء ما لبث أن تحطم · فقد حدثت مناقشة حادة فى مجلس النواب بين ارشيبالد جيل· وكولتروغ حول أحد المشروعات المعروضة على المجلس · فحـــرج الأخير ـ عندما احتد ـ من النقاش الى محاولة النيل من خصمه بتذكيره بحادث ابنه وفراره بالمتهمة ·· وفى عنفوان المعـــركة · تولت جيل الكهل نوبة مخية · فنقل الى بيته محطما · لا يكاد يحير حراكا ·· وقال الطبيب عندما فحصه انه لن يصمد لنوبة تالية ·

وعصف بستول رعب قوى ·· لسوف يقول الناس ان اليك قتل أباه بسوء سلوكه · فهل يسكت · · أم يفضى بالحقيقة فيقضى على نفسه وقد كاد يبلغ قمة المجد ؟ · وكيف اذا سكت ·· يتزوج من فينيلا بضمير قلق غير صاف ؟ ·

وفى المساء ، واتاه عامل البريد بخطـــاب · وقبل أن ينصرف ذكر له أن فوندى ـ حارس السجن ـ قد فصل من منصبه ·

ـ انه ابن عمى الوحيد : وهو فى الســـابعة والسبعين ياسيدى ·

كان الخطاب من الحاكم يحمل اليه نبـــأ فرار السجينة ، واتجاه الشبهات الى أليك جيل ، ويدعوه لوضع صيغة المنشور الذى سيذاع للقبض عليهما ·

واختتم الحاكم خطابه قائلا : « سننتظرك فى الســـاعة الحادية عشرة · وسيكون النائب العـــام ومدير البوليس موجودين · ! لقد طالت غيبتك عن القصر ، فاذا كانت بينك وبين فينيلا علاقة ، فسارع الآن الى تسوية الموقف بينكمـــا وتوطيد العلاقة ·· ولقد قالت لى فينيلا ان لديك صورة لجيل

فارجو أن تحضرها معك لترفق بالمنشور · »

وبهت ستول ·· اذن فجيل فى خطر بعد كل هذا ؟· ورفع رأسه عن الخطاب · فوقعت عيناه على صـــورة جيل ·· ثم تراقصت أمام عينيه السنة اللهيب فى الموقد ، فقفز عن مقعده وانتزع الصورة من اطارها وألقى بها الى النيران ·

وفكر فى هذا المنشور الذى يدعاه الحاكم لكتابته ·· انه يقضى على كل خطته وجهوده التى بذلها للتكفير عن خطيئته·· لا ، ان اشتراكه فى وضع هذا المنشور جريمة لن يغتفرهـا لنفسه ·· لذلك قرر أن يبكر فى الصباح التالى فى الذهاب الى بيت الحاكم قبل وصول الآخرين ، ويعلن اليه أنه لـــن يشترك فى اعداد المنشور لأن ·· لأنه هو مرتكب الجريمة !· واذ ذاك سيكتفى الحاكم لما بين ستول وابنته من علاقات ـ بأن يقصيه عن منصبه ·

وفينيلا ؟ سيعترف لها أيضـــا · ولسوف يهز الاعتراف كيانها ولكن شفيعه لديها سيكون ما أحبه من توفير السعادة لجيل وبيسى · ولسوف تغفر له فينيلا ، وتتزوج منه ويبارحان الجزيرة الى أية بقعة أخرى ·

واتجه تفكيره فجأة الى أبيه · كم كان فخورا به ، تواقا الى أن يراه يمضى فى توفيق نحو ·· المجد !·

وهم أن يأوى الى فراشه فى ساعة متأخرة من الليل · وقد نام من فى القصر ·· ولكنه سمع فجأة ، صوت جرس الباب الخارجى يدوى فى عنف ··

وكان القادم ·· يوشع سكارف ·

الفصل الثالث ـ نداء الروح

كان يوشع يحمل أخبارا حطمت البقية الباقية من الامل فى نفس ستول · فلقد قامت المظاهرات والشغب فى انحاء

www.hilas.com
www.alkottob.com

الجزيرة ، اذا رأى الناس أن العدالة مهضومة ، وان المال هو كل شيء ، حتى ان سجينة حكم عليها بالاعدام ، استطاعت الفرار مع عشيقها لا لشيء الا لان هذا ينتسب الى أسرة غنية ولأنه صديق حميم للقاضى ·· وكان يتزعم هذا الشـــغب كولتروغ ودان بالدروما ·

وقال سكارف : الواقع ياسيدى انه يحسن بالمذنب أن يسلم نفسه للقانون ·· اننى أعرف أنه أعز أصـــحابك ، ولكنه اذا فعل أنقذ الجزيرة من شر محيط فهلا حملتـــه على ذلك ؟ اننى أظنك عالما بمقرة ، مستطيعا الاتصال به ·

وعندما انصرف السكرتير ، كان رأس ستول يكاد ينفجر اذن فقد قضى على خطته كلها وليس من سبيل الا أن يسلم نفسه فى النهاية للعدالة التى أساء اليها بعمله ·· ويجب أن يتلقى الجزاء الواجب ·· وتراءت له صورته وهو ينحدر الى أعماق السجون ، وفكر فى آبائه وأجداده والمجد الذى توارثه عن الاجيال السابقة والذى يوشك أن يدنسه

ياالله ·· ماذا فعل ليستحق كل هـذا ؟ لقد خرق قانونا ظالما لايقوم على أساس صحيح ·· فهل يجب لذلك أن يضع نفسه تحت وطأة هذا القانون ، وأن يلصق العار باسم والده وأن يحطم قلب فينيلا ؟

وفى غمرة الظلام وسكون الليل ، سرى الى اذنه هتاف :

ـ فيكتور ياحبيب القلب قاوم الاغراء تطمئن نفسك ·· سر مع الحق ولا تأبه بالهوة التى ستنحدر اليهـــا فى نظر الناس ، مادمت تتطلع الى آرضاء الله

كان الصوت لفينيلا ·· كانت روحها ترفرف حوله فى ضيقه

وقر رأيه على أن يذهب فيعترف للحاكم فى الصباح ·

ماكاد ستول يصل الى حجرته بعد ذلك ، حتى جلس فكتب خطابا الى النائب العـــام يرجوه أن ينيط بكاتب السجلات توزيع ثروته بحيث تكفل معاشا طيبا لجانيت ومسز كوليستر وتوماس فوندى ـ حارس السجن ـ طيلة الحياة · أما مايبقى من ثروته فيلقدم الى فينيلا كدليل على حبه العميق واخلاصه

ثم تحول الى أوراقه الخاصة يعدمها ·· وأمسك فى يده بالمذكرات التى خلفها أبوه والتى سجل فيها تطورات حياته، وأسماها « يوميات ايزوبيل » فراح يحرقها ورقة ورقة وهو يجهش بالبكاء كطفل صغير ·· ثم تناول خطابات فينيلا ·· باللوعة وياللاسى ·· ! لكأنه كان يحرق قلبه بيده

واتبع ذلك ببقية أوراقه ·· ثم قبضت على قلبـــه يد جليدية قارسة راحت تخنقه ·· لسوف يحرم من فينيلا الى الابد ·· ولكن ·· هل غاب عنه انهُ اذا سلم نفسه والصق العار باسمه سيسعى فى نفس الوقت الى تلطيخ شرفها ·· ولاول مرة فى حياته فكر فى الانتحار

وأحس فجأة بوجود شخص غيره فى الحجرة ·· وراح ضوء المصباح يتضاءل حتى أوشك الظلام ان يغمر الحجرة ·· ورفع عينيه فخيل اليه أنه يرى أباه جالسا فى المقعد الكبير كعادته قبل أن يموت ·· وظن انه مريض ·· ولكنه مالبث ان سمع صوت أبيه ينبعث فى هدوء ·· وعطف ·· ولكن فى حزم :

ـ يابنى العزيز ·· اننى أعرف ماتنتوى عمله ·· وأحذرك من التقاعس عن تحقيقه ·· آن من يتهرب من تبعات خطاياه ·· لايعد رجلا بحال من الاحوال ·· فاذا استطاع منهاخلاصا فى الحياة الدنيا ·· فلن يجد منها مهربا فى الآخـــرة ·· وسيكون عقابه مضاعفا قاسيا

www.liilas.com
www.alkottob.com

وصاح : ابت .. ! الرحمة .. ! الرحمة .. !

وخيل اليه انه يهوى فى حفرة سحيقة مظلمة الاعماق ..

وفى اللحظة التالية كان قد فقد رشده

إستيقظ فيكتور فى ساعة مبكرة من الصباح .. فارتدى ملابسه وحيى كل الخدم فى رفق وتلطف .. ثم راح يدورفى القصر وكأنه يلقى على حجراته نظرة أخيرة

ورأى فى طريقه مظاهر الشغب والفوضى .. لم يكن من احاديث للقوم سوى الحوادث الاخيرة .. وضياع العدالة فى الجزيرة .. واقدام الحاكم على طلب جنود من انجلترا ـ كان منتظرا وصولها فى ذلك الصباح ـ لاخماد الشغب

وتراءت له الحياة حلوة اذ شعر بالموت على الابواب .. ! أينبغى ان يسير الى النهاية .. ؟ انه يحطم حياته وقلبه وقلب فينيلا ..

ووصل أخيرا الى قصر الحاكم .. ولكنه قبل ان يسأل الاذن له بلقائه ، جاءته خادم تدعوه للقاء فينيلا

ودق قلبه فى عنف

ورأى نفسه مع فينيلا وحيدين فى حجرة .. كانت تنظر اليه ذاهلة لفراط ماعراه من تغير .. وأحست فى أعماقها بما قاساه فذاب قلبها لوعة .. ! ونظر اليها بدوه . فداخله مادا خلها من مشاعر

وهتف : فينيلا ! .

فاجابت : فيكتور ! .

وأفضت اليه بما صارحها به حارس السجن يوم القى القبض عليه ، فقال : لم أكن أملك غير هذا يافينيلا .. هكذا تراءى لى

ـ لقد رجانى ان أخبرك انه سيفى بوعده لك الى النهاية .

وغص بريقه ، ثم قال فى صوت متحشرج : لقد تماديت

فى الذنوب يافينيلا .. ولكن ثمة رجاء واحدا لى عندك .. لاتحكمى على قبل ان تعرفى ماقدمت اليوم لانجازه .

وظنت انه سيستقيل من منصبه ، ويهجر الجزيرة ولكنه قال :

ـ ربما كان هذا آخر لقاء لنا ، ولذا فأنا سعيد إذ سمحت لى به .

ـ ماأراك عازما على الاعتراف .. فكر فى أبيك ؟

لقد رأيته فى الليلة الماضية يافينيلا ، اذ جاء ينذرنى فى الليلة الماضية .. على انه لم يكن الشخص الوحيد ، فقد سمعتك أنت الاخرى تحدثيننى .

ـ متى كان ذلك ؟

ـ فى منتصف الليل ، ولعلك كنت مستغرقة فى النوم اذ ذاك

ـ كلا ، لم أنم طيلة الليلة الماضية .. لقد كنت اصلى اذ ذاك .

ونظر اليها بعينين مغرورقتين وقال : من أجلى ؟ .

فغضت بصرها وقالت : أجل كنت أدعوا الله ان يقويك على اتباع الحق .. انك ان هبطت فى أعين الناس ، فلن فلن يضيرك هذا ما دمت تتطلع الى الله .

وغصت بريقها .. وتدفقت الدموع من عينيها مدرارا .. وظلت برهة عاجزة عن الكلام ، ثم قالت : فيكتور ! . يجب أن تغفر لى ، لقد كنت أنا السبب .. كان يجب أن أتشبث بك الى النهاية مهما فعلت أو أخطأت .. ان كلامنا للآخر يا فيكتور ، ولن يدخل حياة أحدنا غير صاحبه .. فدعنا نذهب معا .. دعنا نغادر الجزيرة وننعم بالحياة سويا .

ـ لقد تأخرت يا فينيلا .. ان المكان الذى أذهب اليه الآن لا ينبغى أن يصحبنى اليه أحد .. انتظرى حتى أقابل والدك

www.liilas.com
www.alkottob.com

صعق الحاكم عند ما سمع فيكتور ستول يعترف له .. وظل برهة عاجزا عن الحديث ، ثم قال : ولكن لماذا .. الأننى رفضت أن أسأل العفو لبيسى ؟

– بل لاننى رأيت أن القانون الذى نص على عقوبه الفتاة كان جريمة فى حد ذاته .. لأن قانونا أعلا كان أمامى .. ثم كانت أمامى أسباب خاصة تدعونى لكى أساعد المتهمة على الفرار من العقاب .. ولكننى مالبثت أن رأيت أننى اذ حاولت أن أحول دون القانون وارتكاب الجريمة ، انما أتيت جريمة أخرى ، لقد جئت أسألك أن تأمر بالقبض على .

– القبض عليك ؟. قاض يسجن ، من سمع بهذا ؟

– لقد أجرمت ضد العدالة

– دعك من الهراء الممقوت ، اننى أفهمك ياستول ، ولكن اذا كنت قد أقدمت على ما فعلت بنية طيبة ، فلم لا تصمت ، مادمت راضى الضمير ؟

– لأن الحوادث الأخيرة كلها بنيت وستظل قائمة على اكذوبة لا يرضى عنها ضميرى .

– ولكن .. أنسيت فينيلا ؟.

وولجت فينيلا الحجرة فى نفس اللحظة فوقفت فى صمت لدى الباب ، وقال الحاكم : لسوف يسألك القاضى عما دعاك للجريمة .. واذ ذاك ستضطر أن تفضى بكل قصتك مع بيسى كوليستر .. وماذا بعد ؟. سيأتى ذكر اسم فينيلا . فيغدو مضغة فى أفواه القوم .

وانهمرت الدموع من عينى ستول ، ثم انخرط فى البكاء .

وعاد الحاكم يقول : اسمع يا فيكتور . لن أرسل المنشور .. وسأقمع هذه الثورة بكل الوسائل على شريطة واحدة . أن تطلب أجازة بحجة المرض . وترحل الى الخارج فلا تعود الى الجزيرة قط .

فهز ستول رأسه قائلا :

– كلا . لا أجرؤ . لقد ارتكبت جريمة . واذا أنا لم ادفع الثمن فلن أرتاح فى حياتى .

– ولكننى لن آمر بالقبض عليك . لن أجسر . فان هذا سيحطم كل نفوذ للسلطات فى الجزيرة . بل اننى سأمنع حدوث ذلك .

– اذن فستضطرنى ياصاحب السعادة الى أن أتهم نفسى .

– ولكن فكر فى النتيجة . اننى سأذيع المنشور الخاص بطلب القبض على بيسى وجيل رغم اعترافك ، واذ ذاك تكون جهودك قد ضاعت سدى . ويشقى ثلاثتكم فتخير لنفسك ما يحلو .

– يا صاحب السعادة . للمرة الأخيرة أدعوك لاجابة التماسى . مر باعتقالى . من أجل نفسك . انك ان لم تفعل فسوف أنتحر . واذ ذاك لن يرتاح لك ضمير ..

وولى مغادر الحجرة وقد وقف الحاكم جامدا مذهولا .

وفى الردهة لحقت به فينيلا ، فألقت بنفسها بين ذراعيه وقبلته وهى تقول :

– فيكتور . افعل ما يأمرك به قلبك . لا تفكر فى .. أننى معك فى الحياة والموت ، واذا كان لابد من ذهابك للسجن . فلسوف أذهب معك ، واذا ..

ولم تستطع المضى فى الحديث .. وفى اللحظة التالية فرت من أمامه الى حجرتها وهى تبكى .

وخرج ستول . فى خطى متئدة . لكنه كان مرفوع الرأس .

الخاتمة

خرج ستول من قصر الحاكم الى قسم البوليس حيث اسلم

www.liilas.com

نفسه الى أول الأمر معترفا بمساعدته لبيسى كوليستر على الفرار من سجنها ..

ووقع الخبر على الشعب وقوع الصـــاعقة .. ولكنه كان أهول وقعا على بيت الحاكم ،فقد ثار الحاكم ثورة عاصفة هوجاء وحاول أن يجعل فينيلا على أن تتناسى ذلك المجنون الذى لم يتورع عن أن يحطم حياته وحياتها معه ، ولكنها صاحت :

ـ ليس بوسعى أن اقتطعه من قلبى . لأنه أثبت جرأته فى تحمل تبعات جريمته .

ـ ولكن . ألا تقدرين ما سيكون فى المحاكمة من فضيحة تلطخ اسمك أنت الأخرى ..

ـ لقد أعددت نفسى لهذا ..

وفى صخب صاح : أتعرفين ما كنت أفعله معك لو كنت ولدا ؟

ـ أتقصد أنك كنت تطردنى ؟. لن أكلفك مشقة هذا .. فسأبرح البيت بنفسى ..

وعبثا حاول ـ اذ حطم اصرارها حدة غضبه ـ أن يثنيها او يردها . فبعد دقائق كانت تعد حقيبتها ثم خلفت القصر .

وهناك .. فى سجن كاسل روشن . تطوعت لمســاعدة زوجة الحارس الجديد ، وللقيام بتمريض من يحتـــاج الى عنايتها من نزلاء السجن القليلين .

وقدم ستول للمحاكمة .. وكم كان المنظر مثالا لما تلعبه تقلبات الزمن فى حياة الافراد . أولئك الذين كانوا يتملقونه ويحرقون بخور الرياء عند قدميه ، لم يخجلوا أن يكونوا أول من يتخلى عنه ويحتقره .. بل ان القاضى توبمان ـ الذى تولى محاكمته ـ لم يرع حق زمالتهما ، بل ولم يستمع لصـــوت العدالة والضمير ، وانما ترك للحقد الذى كان يأكل صدره لخطوات فيكتور السريعة المتلاحقة نحو المجـــد ، وللشعور

الخسيس الذى كان يدفعه الى أن يداهن الحاكم ويرائيه ، وهو الساخط على ستول .. ترك لكل هذا أن يستولى عليه . لم يعطف على ستول غير وكيل النيابة الذى كان صديقا لأبيـــه يوما ، فكادت مرافعته تتحول دفاعـــا عن المتهم . . المتهم الذى لم يحاول قط أن يدافع عن نفسه .

وقضى توبمان بسجن ستول عامين .. فى كاسل روشن.

وبعد ثلاثة أيام من انتقال فيكتور الى السجن ـ حيث اصر فى الرجاء على أن يودع نفس الحجرة التى كانت تحتلها بيسى ، وان يرتدى نفس الملابس التى يلبسها نزلاء السجن ، وان يعامل معاملتهم ـ قصدت فينيلا الى أسقف الجـــزيرة ترجوه أن يصحبها الى السجن كى يعقد زواجها على فيكتور.. وتردد الأسقف برهة وهو فى دهشة وشك ، ثم قال :

ـ انه لكرم ونبل منك أن تتقدمى للزواج من رجل سقط من علياء مجده ، فى الوقت الذى يسخر فيه الناس منـــه ويقسون عليه .. جميل جدا أن تسعى الى امداده يومـــا بعد يوم بالأمل والايمان اذ لابد من يوم يستعيد فيه مافقد ، ويبعث اسمه الى الحياة من جديد .. ولكنك تعلمين ان الحاكم لن يوافق ، فلم لا تنتظرين حتى ينتهى أمد سجنه .

ـ أخشى أن يستولى اليأس على روحه . . ولـــكن ليس للحاكم أية سلطة ليتدخل فى مثل هذه الأمور الدينية .

ولكن الأسقف كان جبانا رعديدا ، يخشى أن يغضـــب الحاكم ، وهو الذى يعمل فى خدمة الله !. ولكن قسا بسيط المركز فى احدى كنائس الريف كان أسمى من الأسقف نفسا فلم يتردد فى اجابة فينيلا الى رجائها ، وأصرت زوجته على أن تتطوع بدورها لتساعد فينيلا على ارتداء ملابس العرس فى السجن .. ذلك هو قس كنيسة بالاموار .

وعرجت فينيلا قبل أن تبارح مقاطعة بالاموار مع القس

www.liilas.com

وزوجته على قصر ستول ، فاذا بجانيت شديدة العـــزم ، صابرة متجلدة .. وقالت لها وهى تودعها لدى الباب :

ـ لا تنسى أن تخبريه اننى أعد له النار فى حجرته كل ليلة ليجدها دافئة عند عودته .

علم ستول من حارسه أن فينيلا قد تطوعت للخدمة فى السجن فأكبر فيها هذه التضحية ، ولكنه رأى أن يصدهـــا عنها ويلح فى عودتها الى قصر أبيها .. وتكرم الحـارس فجاءه بقلم وورق ليكتب لها رسالة .. ولكنه قبل أن ينتهى منها سمع قفل حجرته يفتح .. ولم يبادر برفع عينيه عن الورقة ، ولكنه عندما رفعهما أخيراً ، رأى أمـامه فينيلا فى ملابس العرس وكان لقاء .. وأى لقاء ! ولكنه لم يشأ أن يتقبل منها التضحية ، بل راح يصـــدها ويتوسل اليها أن تعود الى قصر أبيها ، والا تجنى على سعادتها وهناءتهـــا بربط حياتها بحياة شقى تعس مثله .. ولكنها أجـابته : ان الحـــاكم لم يعارض فى الســـماح لك بالزواج .. فلماذا تخلق أنت المعارضة .. ما أنا بمـــلاك كما تزعم ولكننى امرأة تود أن تحـــب كامرأة قبل كل شىء .. ليس فى الأمر تضحية ، وانما كل ما صبوت اليه من أسباب السعادة فى الحياة ، توفر الآن بين جدران هذا السجن .. اننى لك .. وأنت لى ، فلا تحرمنى من الرجل الوحيد لى فى هذه الدنيا .

وهفا قلبه .. ولانت مقاومته .. وهزم حب فينيلا كل اثر للمعارضة فى نفسه ، فلم تمض نصف ساعة حتى كان زواجهما قد عقد فى كنيســـة السجن . وانسحب القس وزوجه .. وبقى العروسان وحيدين وقد أضىء المكان بنور سماوى . وشعرا بالملائكة تحيط بهما من كل جانب وهمـا فى غمرة السعادة .

وراحا يتكلمان عن حياتهما المقبلة . وعما ينتظرهما خارج السجن بعد انقضاء العامين .

وتساءلت فينيلا : هل تغادر الجزيرة أيها الحبيب ؟.

ـ أبدا .. بل سنبقى ..

ـ ما أعظمك !.

لقد زاد اصراره على البقاء فى المكان الذى أتى خطيئته فيه . دون أن يجبن أو يخشى الجو الذى يذكره بهذه الخطيئة . من اكبارها وحبها له .

ـ وهل ستظل على حبى دائما يا فيكتور ؟

ـ دائما ! . بل و ..

ـ صه . اننى أعرف . ولكننى كامرأة احب ان أسمع دائما تردد حبك فى مسمعى ليل نهار وراحت تبث فى نفسه الامل ، وتذكره أنه عندما يبرح السجن سيكون كشخص ينتقل من الموت الى الحياة . ومن ظلمات الليل . الى ضوء النهار الصحو الصافى . لكى يؤدى ما بقى امامه من واجبات .

وسرت فى روحيهما نشوة عذبة ناعمة ، وشاءا أن يؤكدا انهما قد ارتبطا أخيرا الى الأبد . فتعانقا . وغابا فى قبلة طويلة بعثت الدفء . والضوء . والأمل الى قلبيهما ..

« تمـــت »

راجعه : عبده

www.hilas.com

هيئة قناة السويس

تحسين ميناء بور سعيد

ان الجهود المتواصلة التى تبذلهـــا الادارة العربية لقناة السويس فى سبيل النهوض بهـــذا الممر الملاحى الحيوى قد حازت ثقة واعجاب كل من يهمه أمر الملاحة والتجارة فى العالم.

وقد شملت الهيئة بعنايتها ضمن مشروعاتها الهامة مشروع تحسين ميناء بور سعيد.

ففى منتصف الشهر الماضى فتحت فى المقر الرئيسى بالهيئة بالاسماعيلية مظاريف عطاءات عمليات انشاء أرصفة عميقة فى ميناء بور سعيد وتوسيع مدخل الميناء وقد تقدمت للعمليـات ثمانى شركات عالمية من سبع دول هى : الجمهورية العربيـة المتحدة ايطاليا ، هولندا ، بولندا واليابان وألمانيا واليونان .

ويشمل المشروع انشاء أرصفة عميقة طولها ١٨٠٠ متر تكفى لرسو عشر سفن تجارية ضخمة حمولة كل منها ٣٠٠٠٠ طن.

ومما يذكر أن ميناء بورسعيد خالية تماما من أيه أرصـفة عميقة حتى الآن وما يزال الشحن والتفريغ للسفن يتم فيهـا بواسطة الصنادل كما يشمل المشروع كذلك توسيع مدخـل ميناء بور سعيد بحيث يسمح للسفن بالمرور فى الاتجاهين مما ينظم حركة الملاحة ويقلل من زمن العبور .

ويدل اشتراك عدد كبير من الشركات العالمية من مختلف الدول على مدى اهتمام العالم بمشروعات القناة واقبال مختلف الهيئات على التعاون مع هيئة قناة السويس فى تنفيذ مشروعاتها

www.liilas.com

www.liilas.com

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون : ٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ - ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢ - ٤٥٣٤٦

www.alkottob.com